

من التراث الإسلامي

رسائل من السجن

لابن تيمية

تقي الدين أحمد بن عبد الحليم

(٦٦١ - ٧٢٨ هـ)



مجموعته

محمد العبد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مَقْرُونُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ

الطبعة الرابعة

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

دار طبية

للنشر والتوزيع

الرياض

ص ب ٧٦١٢

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا . من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا نجاد له . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أما بعد :

فإنه عندما يقل الرجال يتطلع الناس إلى الماضي ليعيشوا مع أولئك الرجال العظام الذين أدءوا خدمات جليلة للأمة بحكمتهم وعلمهم ومواقفهم الشجاعة ، لأن الناس لا بد لهم من قدوة .

يقول الدكتور الكسب كاريل : « وتشعر الجماهير بالألم حين لا تجد أحداً تعجب به ، ومن حسن الحظ أن المجتمع لا يتكون من الأحياء وحدهم بل من الأموات أيضاً ، فعظماء الموتى لا يزالون يحيون بيننا » (١) .

(١) الكسب كاريل ، تأملات في سلوك الإنسان ، ص ١٢٢ .

ومن الرجال الأفاضل في التراث الاسلامي ، العالم المجاهد
تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ، الذي يعد أصدق رجال
العالم تصويراً للعقلية الاسلامية .

ونحن عندما نرجع إلى التراث الاسلامي ، فلسنا من
الذين يتوقعون على الماضي في أحلامه دون أن يكون هذا التراث
أساساً ومنطلقاً للحاضر والمستقبل .

لقد نشر الكثير من تراث شيخ الاسلام ابن تيمية ولا يزال
ينشر ، ولذلك لا بد من ذكر العصر الذي نشأ فيه وبعض المزايا
التي تميز بها وأخيراً سبب إرسال هذه الرسائل التي هي
موضوع هذا الكتاب^(١) .

ولد ابن تيمية في العاشر من شهر ربيع الأول سنة احدى
وستين وستمائة من الهجرة (١٠ ربيع الأول ٦٦١ هـ) بمدينة
حرّان في اقليم الجزيرة شمالي العراق وبلاد الشام ، من أسرة
ثابتة الدعائم قوية الأركان ، امتازت بقوة البيان وقوة الذاكرة . .
فوالده الشيخ عبد الحليم كان عالماً محدثاً ، وجَدَّه مجد الدين
أبو البركات صاحب (منتقى الأخبار) . يقول عنه الحفيد :
« كان جدنا عجباً في حفظ الأحاديث وسردها وحفظ مذاهب
الناس » .

ومن هذا نعلم أنه ولد في عصر يموج بالاضطراب السياسي

(١) وهي حتى ص ٥٢ من هذا الكتاب .

والثقافي ، فقبل مولده بخمس سنوات دمرت بغداد من قبل التتار ، ولذلك نزحت الأسرة من حرّان إلى دمشق ، ولا شك أن وحشية هؤلاء القوم أعطت هذا الطفل إحساساً بكره الظلم ، وشجاعة لقتال العدو .

وقد تميز عصره ببروز علماء في فنون شتى ، ولكن السمة الظاهرة على هذه العلوم،هي السعة التي هي أقرب إلى الموسوعات . وسبب تميز ابن تيمية أنه لم يكتف بما درس عن شيوخه ، بل قرأ وفحص واستفاد بقلب واع ونزعة استقلالية ، فلم يقيد نفسه بشيخ معين أو مذهب معين ، بل استفاد من الكل وأتى بجديده .

وقد اطلع على كل ثقافات عصره وهضمها ، وأكثر من البحث في العقائد والردود على المخالفين لما لهذا الموضوع من أهمية في حياة المسلم في الدنيا والآخرة ، ولكن التفسير كان أحب موضوع إليه . يقول عن نفسه : « ربما طالعت على الآية الواحدة نحو مئة تفسير ، ثم أسأل الله الفهم وأقول : يا معلم آدم وإبراهيم علمني . وكنت أذهب إلى المساجد المهجورة وأمرغ وجهي في التراب ، وأسأل الله وأقول : يا معلم إبراهيم فهمني » .

واعترف بفضل معاصروه . يقول عنه القاضي الزملكاني : « قد ألان الله له العلوم ، كما ألان لداوود الحديد » . ويقول عنه الذهبي : « أطلق عبارات أحجم عنها الأولون والآخرون وهابوا ، وجسر هو عليها » .

ومن ميزاته :

أولاً : صلته مع جماهير المسلمين ، حيث كان لهم معلماً ومرشداً ، يحل مشاكلهم ويدافع عنهم أمام الحكام ، ويثبتهم عند غارات التتار ، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، خاصة وأنه لم ينشغل بتجارة أو غيرها من أمور الدنيا ، بل كان كل وقته للعلم والجهاد . وهذه الصلة القوية التي جعلت العوام في دمشق يحبونه ويجلونهم ، ولذلك لم يتجرأ عليه الحاسدون، وإنما تجرؤوا عليه في مصر لأنهم لم يعرفوه المعرفة التامة ولم يعايشوه .

وعندما يتكلم في السياسة الشرعية نلاحظ هذا العطف والاهتمام بمصالح المسلمين ومشاكلهم . يقول : « إن العمران أساسه العدل ، وعاقبة الظلم وخيمة . ولهذا يروى : إن الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة ، ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة » .

ويقول : « إن بُعد المتدينين عن الولاية لظنهم أنه لا بد فيها من حب الرئاسة والمال . والذي أخذها أخذها معرضاً عن الدين ظاناً أنها منافية له ، وأن الدين في محل الرحمة . والصحيح أن تولية الأبرار خير للأمة من تولية الفجار » .

وهو مع الجماهير في مشاكلها الاقتصادية . يقول عن المحتكرين : « ولذا كان لولي الأمر أن يكره الناس على بيع ما عندهم بقيمة المثل عند ضرورة الناس إليه » .

ولما قرب التتار من دمشق وأرجف الناس وبدأ البعض يفكر في الرحيل ، رفض ابن تيمية هذه العقلية ، وطلب منهم البقاء وشجعهم . وأخذ يقول لأمرء الجيش : « إن الله سينصرنا ، فيقولون له : قل : إن شاء الله فيقول : تحقيقاً لاتعليقاً » .

وشارك في الجهاد ضد التتار في وقعة (شقحب) ، بعد أن أصدر فتواه المشهورة أنهم كفار بسبب امتناعهم عن بعض شرائع الاسلام ولو تكلموا بالشهادتين .

ويسجن أحد العلماء .. ولما يبلغ ابن تيمية ذلك يذهب بنفسه ويخرجه من السجن ، ويشي على هذا العالم أمام أمير دمشق . ويسمع أن رجلاً سب النبي ﷺ فيقوم لانكار هذا المنكر ويقوم الناس معه . ويؤلف بسبب هذا كتاب (الصارم المسلول على شاتم الرسول) . ومن اهتمامه بالمسلمين ، معرفته لأحوالهم في جميع أقطارهم ، والظروف التي يعيشها كل قطر ، وما هم عليه من القرب من الاسلام أو البعد عنه . يقول في وصف المسلمين في بلاد الشام ومصر الذين يقومون بالذود عن حياض الاسلام في ذلك العصر :

« ومن يدبّر أحوال العالم في هذا الوقت ، يعلم أن هذه الطائفة — التي بالشام ومصر — هي أقوم الطوائف بدين الاسلام علماً وعملاً وجهاداً عن شرق الأرض وغربها ، فإنهم هم الذين يقاتلون أهل الشوكة العظيمة من المشركين . والعز الذي للمسلمين بمشارك الأرض ومغاربها هو بعزهم ... »

وذلك أن سكان اليمن في هذا الوقت ضعاف عاجزون عن الجهاد ، أو مضيقون له وهم مطيعون لمن ملك هذه البلاد ، وأما سكان الحجاز فأكثرهم أو كثير منهم خارجون عن الشريعة ، وفيهم من البدع والضلال والفجور مالا يعلمه إلا الله . وأهل الإيمان والدين فيهم مستضعفون عاجزون ، فلو ذلت هذه الطائفة — التي بالشام ومصر — والعياذ بالله تعالى ، لكان المؤمنون في الحجاز من أذل الناس . وملك هؤلاء التتار المحاربون لله ولرسوله الآن مرفوض ، فلو غلبوا الفساد الحجاز بالكلية .

وأما بلاد أفريقية فأعرابها غالبون عليها وهم من شر الخلق ، بل هم مستحقون للجهاد وانغزو . وأما المغرب الأقصى فمع استيلاء الافرنج على أكثر بلادهم ، لا يقومون بجهادهم . ولو استولى التتار على هذه البلاد لكان أهل المغرب معهم من أذل الناس ...

فهذا مما يبين أن هذه الطائفة التي بالشام ومصر في هذا الوقت هم كتيبة الاسلام ، وعزهم عز الاسلام ، وذلمهم ذل الاسلام» (١) .

نقلنا هذا النص بطوله لأهميته .. ولنلاحظ متابعة ابن تيمية للأحداث في عصره ، ومقدرته الكبيرة على تحليل الحالة النفسية والاجتماعية للناس .

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ، طبعة الرياض ، جزء ٢٨ ،

ثانياً : ومع هذه الصلة بال جماهير والاهتمام بالأحداث ، فقد كان عميقاً في تفكيره ، بل وصل إلى قمة الوعي عندما أدرك أن فريقاً من المسلمين منذ أواخر القرن الثاني الهجري قد انبهر بمنطق أرسطو وفلسفة أفلاطون (كما انبهر اليوم كثيرون بالمستشرقين) ، وراحوا يحاولون إلباس العقيدة الإسلامية الصافية ثوب الفلسفة ، فجاءت الصورة مشوهة ، وتحول العلم المفيد إلى جدل ومناظرات لا طائل تحتها ، لأن النظريات التي في الذهن فقط لم تستطع يوماً أن تساهم في سعادة البشرية ، بل الذي ينقذ البشرية دائماً هو نور النبوة ...

يقول ابن تيمية عن المنطق : « إن الذي وضع هذا العلم هو رجل يوناني ، وقد كانت جماهير العقلاء في الأمم المختلفة قبلهم تعرف حقائق الأشياء بدون هذه الاصطلاحات ، كما أن العلوم الرياضية والطبيعية والعلوم العملية كالأخلاق والسياسة لا تعتمد عليه ، وهذا المنطق مرتبط بلغة اليونان التي لها دلالتها الخاصة ، وهو لا يحتاج إليه الذكي ولا ينتفع به البليد » .

« وعندما يقال : دليل شرعي لا يقابله أن يقال دليل عقلي ، بل الدليل الشرعي قد يكون سمعياً ، وقد يكون عقلياً كالإدلة التي نبه الله عليها في كتابه الكريم والدالة على توحيده وصدق رسله . وعكس الشرعي : يكون بدعي ، إذ البدعة تقابل الشرعة » .

إنه بحق عالم لم تصبه عقدة النقص التي أصابت بعض العلماء
في القديم والحديث .

ثالثاً : وأما رسائله التي جمعناها : فهي صورة أخرى عن
ابن تيمية ... صورة ربما لم يعرفها كثير من الناس ... فلربما
عرفوه بالخشونة في الجواب والصراحة في الحق كما ذكر عنه
تلميذه الذهبي : « تعتريه حدة في البحث وصدمة للخصوم » .

أما ابن تيمية الذي يكتب لوالدته رسالة تفيض بالركة
والعطف والاحترام ، والذي يكتب لآخوانه في دمشق وتلامذته
رسائل فيها الحب والنصح والتعليم ، وفيها المسامحة للذين سعوا
فيه إلى السلاطين ليسجنوه و ... فانها غير معروفة عند كثير من
الناس ، وبالتالي غابت صورة ابن تيمية الانسان صاحب الصدر
الواسع ، والقلب العامر بالإيمان والتسامح ...

وهذه الرسائل هي من السجن ... ولكن لماذا يسجن مثل
ابن تيمية ؟ لم تسجنه دولة كافرة ولا سلطان غاشم ... ولكن
— المؤسف أن — بعض المشايخ في عصره حسدوه (لانتقاده
بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وطاعة الناس له ومحبتهم له
وكثرة أتباعه)^(١) .

هذا عدا عن تعصبهم لما ألفوه في الفقه والعقائد (وقد يكون
بعضهم عن حسن نية) ... هؤلاء هم الذين أوغروا صدر الحاكم
عليه ، فسجن في القاهرة والاسكندرية ودمشق .

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٣٧/١٤ .

وهنا تكمن مشكلة كبيرة • أيسجن عالم من أجل اجتهاد خالف فيه غيره من العلماء على الرغم أنه لم يخرج باجتهاده هذا عن شرائع الاسلام؟! فكيف لا تتسع صدورنا لخلاف عالم نعلم أنه يحب الله ورسوله؟! نقول هذا ولا نريد نبش الماضي ، ولكن هذه المخاصمات مازالت موجودة إلى الآن وهذا مما يؤسف له • ينبغي أن تتسع صدورنا للخلاف الذي قد يقع بيننا - إذا لم يكن بدعة أو ضلالة أو تشريعاً بغير ما أنزل الله - وألا نلجأ إلى المساجلات التي تظهر فيها البطولات الوهمية ، كما ينبغي ألا نستخدم العناوين التي تدل على أن المعركة كأنها مع العدو وبالسنان لا باللسان ...

ونعود إلى الشيخ في سجنه ... لقد بدأت المشاغبات عليه عندما ألف رسالة بعنوان (الحموية) رداً على سؤال ورده من حماه حول صفات الله سبحانه وتعالى وذلك عام (٦٩٨ هـ) ، فعقدت له المجالس في دمشق وسئل عن هذا الموضوع ، فشرح لهم هذه الأمور ، وقال لنائب السلطنة في دمشق : « لقد ألقت العقيدة الواسطية قبل هذا وقبل هجوم التتار » • فجيء بها وقرئت في عدة مجالس ... ولكن أكثرهم لم يستطع المعارضة لقوة الحجة ... ومن العجيب أن نائب السلطنة أراد أن ينهي الموضوع ويقرر أن هذه عقيدة الإمام « أحمد بن حنبل » فتنتهي الاشكالات ، ولكن ابن تيمية رفض وقال : « هذه عقيدة السلف ، ولا يختص فيها الإمام أحمد » •

ويظهر أن المشايخ في مصر يستطيعون أن يفعلوا مايعجز عنه
نظرأؤهم في دمشق ، وذلك لأن ابن تيمية له وجهة في دمشق عند
الخاص والعام ، بينما أهل مصر لا يعرفونه . . . فالتبوا عليه الأمير
المتسلط يومئذ « ركن الدين بيبرس الجاشنكير »^(١) وكان شيخه
« نصر المنبجي » من المغالين في التصوف . . .

وهنا جاء الأمر السلطاني باحضار ابن تيمية إلى القاهرة
لمحاكمته أو محاكمة فكره ، وذلك في عام ٧٠٥ هـ . وخشي نائب
السلطنة في دمشق من ذهاب الشيخ إلى مصر ونصحه بعدم
الذهاب ، ولكن الشيخ قرر الذهاب لأن في ذلك مصالح كثيرة .

توجه الشيخ إلى مصر . . . ويصف لنا تلميذه « ابن
عبد الهادي » ذلك اليوم ، حيث احتشد الناس لوداعه ، وهم بين
باك وحزين أو متعجب^(٢) .

وصل الشيخ إلى مصر ، وعقد له مجلس وكان القاضي ابن
مخلوف المالكي ، وشعر ابن تيمية أن الحكم هو الخصم ، فرفض

(١) كان السلطان يومئذ « محمد بن قلاوون » ولما أحس
أنه ليس له من الأمر شيء وأن الأمر بيد الجاشنكير وسلار ،
خرج متظاهراً بالحج واستقر في الكرك .

انظر : محمد بن قلاوون للدكتور عبد العزيز مرزوق .

(٢) انظر العقود الدرية ، ص ٢٤٩ .

الجواب ، وقرروا سجنه في قلعة الجبل بالقاهرة ، ودخل معه السجن أخواه عبد الله وعبد الرحمن ... وأرسل رسالة إلى أحد أقربائه يذكر فيها أنه لم يقبل شيئاً من الكسوة السلطانية ولا تدنس بشيء من ذلك ...

بقي في هذا السجن سنة ونصف السنة ، وقد حاولوا إخراجه قبل هذه المدة فرفض لأنه علم أنهم ليسوا طلاب حق ، ويريدون إلزامه بأشياء لا يرضاها ...

وفي سنة (٧٠٧ هـ) دخل الأمير « حسام الدين مهنا ابن عيسى » من أمراء العرب ، وأخرج الشيخ من السجن بعد أن استأذن في ذلك .

أقام الشيخ بالقاهرة وأصبحت تعقد له الحلقات والدروس في المساجد ويستفيد الناس منه ... ولكن أصحاب الأفكار العفنة الذين لا يحبون الضوء انزعجوا من وجود مثل هذا الشيخ بين أظهرهم ، فاشتكوا إلى السلطان ، وعندئذ قرروا تسفيره إلى الشام ولكن على شروط ، فقبل بعد إلحاح أنصاره ، وخرج مع بريد الشام ، ثم رأوا أن يرجعوه إلى السجن^(١) .

(١) كما قال سبحانه عن أهل مصر في يوسف : « ثم بعد لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين » . ومن العجيب أن الشيخ بقي في مصر سبع سنوات كأنها سني الخصب التي بشر بها يوسف عليه السلام بعد السنوات الجفاف .

وهنا لابد أن ننقل هذه الصورة الرائعة التي نشاهدها في سجنه هذه المرة ، نقلها من ترجمته في العقود الدرية : « ولما دخل الحبس وجد المحاييس مشتغلين بأنواع من اللعب يلتهون بها عما هم فيه كالشطرنج والنرد ^(١) ونحو ذلك من تضييع الصلوات ، فأنكر الشيخ عليهم أشد الإنكار وأمرهم بملازمة الصلاة والتوجه إلى الله بالأعمال الصالحة والتسبيح والاستغفار والدعاء ، وعلمهم من السنة ما يحتاجون إليه ، ورغبهم في أعمال الخير ، وحضهم على ذلك حتى صار الحبس بما فيه من الاشتغال بالعلم والدين خيراً من الزوايا والرُّبُط والخواق والمدارس ، وصار خلق من المحاييس إذا أُطلقوا يختارون الإقامة عنده . وكثر المترددون إليه حتى كاد السجن يمتلئ منهم » ^(٢) .

فلم يعجبهم هذا ، فنقلوه إلى السجن في الاسكندرية . ثم إن السلطان « محمد بن قلاوون » رجع متصراً على منافسيه بعد إقامته في الكرك (وكان معظماً للشيخ) ، فأمر باحضاره إلى القاهرة . جلس السلطان وعنده العلماء والأمراء ودخل ابن تيمية فقام السلطان من مجلسه وسعى إلى الشيخ فسلم عليه ، وذهب به إلى مكان بعيد عن المجلس وقال له : « إن بعض الحاضرين

(١) هو المسمى بالشام (بالطاولة) .

(٢) العقود الدرية ، ص ٢٦٩ .

— يعني من العلماء — بايعوا الجاشنكير، وسعوا فيك » • واستفتاه في قتلهم ، فرفض الشيخ وقال له :

« إن هؤلاء لو ذهبوا لم تجد مثلهم في دولتك ، أما أنا فهم في حل من حقي » (١) •

استقر الشيخ في القاهرة ، وسكن بالقرب من مسجد الحسين ، وعاد إلى بث العلم ••• وكان شجاعاً في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر •••

ثم توجه إلى الشام بصحبة الجيش المصري الذي ذهب لصدهجوم التتار ، وذلك عام (٧١٢ هـ) ، فكانت مدة غيبته في مصر (سبع سنين وأياماً) ، واستقر في دمشق وعاد لنشر العلم •• ولكن مخالفه لا يتركونه فقد أفتى بأشياء تخالف مذاهبهم ، ثم إنهم وجدوا في ثنايا كتابه (اقتضاء الصراط المستقيم) موضوع « شد الرحال لزيارة القبور » ومنعها حسب النصوص ، وهو في ذلك معظم لرسول الله ﷺ • وهنا يظهر أن السلطان « قلاوون » بدأ يسمع الوشائيات فيه فأمر بسجنه بالقلعة في دمشق ، ودخل السجن وهو يقول :

« ففرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة ، وظاهره من قبله العذاب » (٢) •

(١) العقود الدرية ، ص ٢٨٢ •

(٢) سورة الحديد : الآية ١٣ •

وفي السجن مازال يؤلف ويشغل بالتفسير وتلاوة
القرآن والعبادة، ثم منعت عنه الأوراق والكتب والحبر .. وتوفي
في هذا السجن عام (٧٢٨ هـ) رحمه الله ورضي عنه .

هذه قصة محنة هذا الإمام المجدد والمصلح . وهو أنموذج
العلم والجهاد والقلب الكبير... حيث سامح خصومه وأحلكهم من
حقه إلا من كان عدواً لله ورسوله ..

وقفنا الله لفهم دينه والجهاد في سبيله ..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

محمد العبد

١٢ ربيع الاول ١٤٠٠ هـ

* * *

رسالة شيخ الإسلام ابن تيمية إلى والدته : يعتذر فيها عن إقامته بمصر ، لأنه يرى ذلك أمراً ضرورياً لتعليم الناس .

قال رحمه الله :

بسم الله الرحمن الرحيم

من أحمد بن تيمية إلى الوالدة السعيدة ، أقرّ الله عينها بنعمه وأسبغ عليها جزيل كرمه ، وجعلها من خيار إماءه وخدمه .

سلام عليكم ، ورحمة الله وبركاته وبعد :

فإنا نحمد إِيَكُم الله الذي لا إله إلا هو ، وهو للحمد أهل ، وهو على كل شيء قدير . ونسأله أن يصلي على خاتم النبيين ، وإمام المتقين محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً .

كتابي إِيَكُم عن نعم من الله عظيمة ، ومنن كريمة وآلاء جسيمة ، نشكر الله عليها ، ونسأله المزيد من فضله .

ونعم الله كلما جاءت في نمو وازدياد ، وأياديه جلّت عن التعداد .

وتعلمون أن مقامنا الساعة في هذه البلاد ، إنما هو لأُمُور
ضرورية ، متى أهملناها فسد علينا أمر الدين والدنيا ، ولسنا
والله مختارين للبعد عنكم ، ولو حملتنا الطيور لسرنا إليكم ،
ولكن الغائب عذره معه . وأتم لو اطلّعتُم على باطن الأُمُور
فإنكم — والله الحمد — ما تختارون الساعة إلا ذلك . ولم نعزم
على الإقامة والاستيطان شهراً واحداً ، بل كل يوم نستخير الله
لنا ولكم ، وادعوا لنا بالخيرة . فنسأل الله العظيم أن يخير لنا ولكم
وللمسلمين ما فيه الخيرة في خير وعافية .

ومع هذا فقد فتح الله من أبواب الخير والرحمة والهداية
والبركة ، ما لم يكن يخطر بالبال ولا يدور في الخيال . ونحن في كل
وقت مهمومون بالسفر ، مستخiron الله سبحانه وتعالى ، فلا يظن
الظان أننا نؤثر على قربكم شيئاً من أُمُور الدنيا قط ، بل ولا نؤثر
من أُمُور الدين ما يكون قربكم أرجح منه ، ولكن ثمَّ أُمُور كبار
نخاف الضرر الخاص والعام من إهمالها^(١) . والشاهد يرى
مالا يرى الغائب .

(١) قال الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه (ابن تيمية) صفحة ٦٤ :
أما ضرره العام ، فإنه ضلال الناس . وأما الضرر الخاص ، فهو
تبعه العالم بأمر إذا لم يبينه للناس . ثم هناك ضرر خاص أن ابن
تيمية جاء إلى مصر متهماً في دينه ، فكان من حق نفسه عليه أن يزيل
الالتهام ويخرج بريئاً .

والمطلوب كثرة الدعاء بالخيرة ، فإن الله يعلم ولا نعلم ،
ويقدر ولا تقدر ، وهو علام الغيوب . وقد قال النبي ﷺ :
« من سعادة ابن آدم استخارته الله ورضاه بما يقسم الله
له ، ومن شقاوة ابن آدم ترك استخارته الله ، وسخطه بما يقسم
له (١) » .

والتاجر يكون مسافراً فيخاف ضياع بعض ماله ، فيحتاج
أن يقيم حتى يستوفيه ، وما نحن فيه أمر يجلب عن الوصف ،
ولا حول ولا قوة إلا بالله .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، كثيراً كثيراً ، وعلى سائر
مَنْ في البيت من الكبار والصغار ، وسائر الجيران والأهل
والأصحاب واحداً ، واحداً .

والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد وآله وصحبه
وسلم تسليماً (٢) .

(١) علق الشيخ حامد الفقي على هذا الحديث : رواه الترمذي
وقال : حديث غريب . ورواه أحمد وأبو يعلى والحاكم وقال عنه :
صحيح الاسناد .

انظر العقود الدرية ، ص ٢٥٨ .

(٢) انظر مجموع الفتاوى ٤٨/٢٨ ، والعقود الدرية / ٢٥٧ .

رسالة الشيخ ابن تيمية إلى إخوانه في دمشق .

والظاهر انه ارسلها بعد خروجه الاول من السجن ، حيث سجن سنة ونصف بدأ من عام ٧٠٥ هـ . وقد أخرجه الأمير عيسى بن مهنا . ولكن نائب السلطنة في القاهرة طلب منه البقاء معه فاستجاب الشيخ حيث صادف ذلك رغبة عنده لانه يريد ان يتصل بالناس ويعلمهم ويبيث الدعوة السلفية . ويلاحظ في هذه الرسالة انه عفى عن خصومه ، وطلب من إخوانه ان لا يؤذوا احدا من اجله ، وهذا شان العالم الواسع العقل ، الكبير القلب .

قال بعد ان حمد الله وصلى على نبيه ﷺ :

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد فإن الله — وله الحمد — قد أنعم عليّ من نعمه العظيمة ومننه الجسيمة ، وآلائه الكريمة ، ما هو مستوجب لعظيم الشكر ، والثبات على الطاعة ، واعتياد حسن الصبر ، على فعل الأمور . والعبد مأمور بالصبر في السراء أعظم من الصبر في الضراء . قال تعالى :

« ولئن اذقنا الإنسان رحمة مِنّا ثم نزعناها منه إنه ليؤس كفور . ولئن اذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولنَّ : ذهب السيئات عني ، إنه لفرح فخور ، إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات . اولئك لهم مغفرة وأجر كبير » (١) .

(١) سورة هود — الآيات ٩ ، ١٠ ، ١١ .

وتعلمون أن الله سبحانه منّ في هذه القضية (١) من المنن التي فيها من أسباب نصر دينه وعلو كلمته ، ونصر جنده ، وعزة أوليائه ، وقوة أهل السنة والجماعة ، وذلّ أهل البدعة والفرقة ، وتقرير ما قُتِر عندكم من السنة وزيادات على ذلك بانفتاح أبواب من الهدى والنصر ، والدلائل ، وظهور الحق لأمر لا يحصي عددهم إلا الله تعالى وإقبال الخلائق إلى سبيل السنة والجماعة ، وغير ذلك من المنن مالا بد معه من عظيم الشكر ، ومن الصبر ، وإن كان صبراً في سراء .

وتعلمون أن من القواعد العظيمة التي هي من جماع الدين ، تأليف القلوب واجتماع الكلمة ، وصلاح ذات البين ، فإن الله تعالى يقول :

(فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم) (٢) ويقول : (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) (٣) ويقول : (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات واولئك لهم عذاب عظيم) (٤) . .

(١) أي قضية محاكمته في مصر وسجنه حيث إذا أراد الله نشر فضيلة أتاح لها لسان حسود . فقد استطاع بذلك بث آرائه هناك .

(٢) سورة الأنفال - الآية ١ .

(٣) سورة آل عمران - الآية ١٠٣ .

(٤) سورة آل عمران - الآية ١٠٥ .

وأمثال ذلك من النصوص التي تأمر بالجماعة والائتلاف ،
وتنهي عن الفرقة والاختلاف .

وأهل هذا الأصل : هم أهل الجماعة ، كما أن الخارجين عنه
هم أهل الفرقة .

وجماع السنة : طاعة الرسول ، ولهذا قال النبي ﷺ في
الحديث الصحيح الذي رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة :

« إن الله يرضى لكم ثلاثاً : أن تعبدوه ، ولا تشركوا به شيئاً ،
وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، وأن تناصحوا من ولاه
الله أمورك » .

وفي السنن من حديث زيد بن ثابت وابن مسعود — فقيهي
الصحابة — عن النبي ﷺ أنه قال :

« نضر الله امرأ سمع منا حديثاً فبلغه إلى من لم يسمعه ،
فرب حامل فقه غير فقيه ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه .
ثلاث لا يفل عليهن قلب مسلم : إخلاص العمل لله ، ومناصحة ولاة
الأمر ، ولزوم جماعة المسلمين ، فإن دعوتهم تحيط بمن وراءهم » .

وقوله : (لا يفل) أي لا يحقق عليهن ، فلا يفيض هذه
الخصال قلب المسلم بل يحبهن ، ويرضاهن ^(١) .

(١) واضح من تشديد الشيخ على الالفه والمحبة ما لاقاه
من الاختلاف ، وتعصب المشايخ ضده . . . بسبب اجتهاد يرى
أنه صحيح . . ثم هو يريد من هذا التمهيد الطويل أن لا يتعصب
إخوانه ضد الذين آذوه كما سيذكره .

وأول ما أبدأ به من هذا الأصل : ما يتعلق بي فتعلمون
 — رضي الله عنكم — أنني لا أحب أن يؤذى أحد من عموم المسلمين
 — فضلاً عن أصحابنا — بشيء أصلاً ، لا باطناً ولا ظاهراً ،
 ولا عندي عتب على أحد منهم ولا لوم أصلاً ، بل هم عندي من
 الكرامة والإجلال والمحبة والتعظيم أضعاف أضعاف ما كان ، كل
 بحسبه ، ولا يخلو الرجل إما أن يكون مجتهداً مصيباً أو مخطئاً
 أو مذنباً . فالأول مأجور مشكور ، والثاني مع أجره على الاجتهاد
 فمعفو عنه مغفور له ، والثالث : فآله يغفر لنا وله ولسائر المؤمنين .

فنتطوي بساط الكلام المخالف لهذا الأصل^(١) ، كقول القائل :
 فلان قصر ، فلان ما عمل ، فلان أوزي الشيخ بسببه ، فلان
 كان سبب هذه القضية ، فلان كان يتكلم في كيد فلان . . ونحو
 هذه الكلمات ، التي فيها مذمة لبعض الأصحاب والإخوان^(٢) ،
 فإني لا أسامح من آذاهم من هذا الباب . ولا حول ولا قوة
 إلا بالله .

(١) ليس بعد هذا الصفح وهذا التسامح شيء . وهذا
 لا يصدر إلا عن عالم هو وريث الأنبياء لا شك .

(٢) ربما يقصد بعض أصحابه وإخوانه في دمشق ، الذين
 ضعفوا في هذه المحنة ، ولم يستمروا على منهج شيخهم . ولذلك
 ينهى أصحابه أن يؤذوهم ، ويعتذر لهم ويبين أن ليس في قلبه
 بغض لهم ، بل يقدرهم ، ويحبهم في الله .

بل مثل هذا يعود على قائله باللام ، إلا أن يكون له حسنة ،
 وممن يغفر الله له إن شاء ، وقد عفا الله عما سلف • وتعلمون
 أيضاً : أن ما يجري من تغليظ أو تخشين على بعض الأصحاب
 والإخوان — ما كان يجري بدمشق ، ومما جرى الآن بمصر —
 فليس ذلك غضاظة ولا تقصاً في حق صاحبه ، ولا حصل بسبب
 ذلك تغير منا ولا بغض ، بل هو بعد ما عومل به من التغليظ
 والتخشين أرفع قدراً وأنبه ذكراً ، وأحب وأعظم • • وإنما هذه
 الأمور هي من مصالح المؤمنين ، التي يصلح الله بها بعضهم ببعض ،
 فإن المؤمن للمؤمن كالإدين تغسل إحداهما الأخرى ، وقد
 لا ينقلع الوسخ إلا بنوع من الخشونة ، لكن ذلك يوجب من
 النظافة والنعموة ، ما نحمد معه ذلك التخشين •

وتعلمون : أننا جميعاً متعاونون على البر والتقوى ، واجب
 علينا نصر بعضنا بعضاً ، أعظم مما كان وأشد • فمن رام أن
 يؤذي بعض الأصحاب أو الإخوان لما قد يظنه من نوع تخشين
 عومل به بدمشق أو بمصر الساعة أو غير ذلك فهو الغالط •

وكذلك من ظن أن المؤمنين ييخلون عما أمروا به من التعاون
 والتناصر فقد ظن ظناً سوءاً «وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً»^(١)
 وما غاب عنا أحد من الجماعة ، أو قدم إلينا الساعة أو قبل الساعة

(١) سورة يونس — الآية ٣٦ •

إلا ومنزلته عندنا اليوم أعظم مما كانت وأجلّ وأرفع • وتعلمون
— رضي الله عنكم — أن ما دون هذه القضية من الحوادث يقع
فيها من اجتهاد الآراء ، واختلاف الأهواء وتنوع أحوال أهل
الإيمان مالا بد منه — من نزغات الشيطان — مالا يتصور أن
يَعْرِى عنه نوع الإنسان • وقد قال تعالى :

« وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً • ليعذب الله المنافقين
والمنافقات والمشركين والمشركات، ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات •
وكان الله غفوراً رحيماً » (١) •

بل أنا أقول ما هو أبلغ من ذلك تنبيهاً بالأدنى على الأعلى
وبالأقصى على الأدنى فأقول :

تعلمون كثرة ما وقع في هذه القضية (٢) من الأكاذيب
المفتراة والأغاليط المظنونة ، والأهواء الفاسدة ، وأن ذلك أمر
يجل عن الوصف ، وكل ما قيل من كذب وزور ، فهو في حقنا
خير ونعمة • قال تعالى :

« إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم ،
بل هو خير لكم ، لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم ، والذي
تولى كبره منهم له عذاب عظيم » (٣) •

(١) سورة الأحزاب — الآيتان ٧٢ ، ٧٣ •

(٢) قضية اتهام المشايخ له في موضوع العقيدة وتحاملهم عليه
وحسداهم له ثم زجهم له في السجن مع أن رايه هو الصحيح •

(٣) سورة النور — الآية ١١ •

وقد أظهر الله من نور الحق وبرهانه ، ماردٌ به إيفك الكاذب
وبهتانه ، فلا أحب أن يثتصر من أحد بسبب كذبه عليّ أو ظلمه
وعدوانه ، فإني قد أحللت كل مسلم • وأنا أحب الخير لكل
المسلمين ، وأريد لكل مؤمن من الخير ما أحبه لنفسه •

والذين كذبوا وظلموا منهم في حلٍّ من جهتي • وأما
ما يتعلق بحقوق الله : فإن تابوا تاب الله عليهم ، وإلا فحكم الله
نافذ فيهم ، فلو كان الرجل مشكوراً على سوء عمله ، لكنت
أشكر كلَّ من كان سبباً في هذه القضية^(١) ، لما يترتب عليه من
خير الدنيا والآخرة ، لكن الله هو المشكور على حسن نعمه
وآلائه وأياديه التي لا يقضى للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له •
وأهل القصد الصالح يشكرون على قصدهم ، وأهل العمل
الصالح يشكرون على عملهم ، وأهل السيئات نسأل الله أن يتوب
عليهم •

وأتم تعلمون هذا من خلقي ، والأمر أزيد مما كان وأؤكد ،
لكن حقوق الناس بعضهم مع بعض ، وحقوق الله عليهم هم فيها
تحت حكم الله •

وأتم تعلمون أن الصديق الأكبر في قضية الإفك التي أنزل
الله فيها القرآن ، حلف لا يصل مسطح بن أثانة ، لأنه كان من
الخائضين في الإفك • فأنزل الله :

(١) لأنه حصل بسببها خير كثير لأهل مصر ، حيث قمع البدع
هناك وظهر عوارها ، وألقى الدروس في المساجد والمدارس •

« ولا يأتلِ أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى
والمساكين والمهاجرين في سبيل الله ، وليعفوا وليصْفَحُوا ، ألا تحبون
أن يغفر الله لكم ، والله غفور رحيم » (١) .

فلما نزلت قال أبو بكر : « بلى والله إني لأحب أن يغفر الله
لي » . فأعاد إلى مسطح النفقة التي كان ينفق .

ومع ما ذكر من العفو والإحسان ، وأمثاله ، وأضعافه
والجهاد على ما بعث الله به رسوله من الكتاب والحكمة أمر
لا بد منه :

« فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين ،
أعزة على الكافرين ، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم .
ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم . إنما وليكم الله
ورسوله ، والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة
وهم رакعون . ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا ، فإن حزب
الله هم الغالبون » (٢) .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله
وسلم تسليماً (٣) .

(١) سورة النور - الآية ٢٢ .

(٢) سورة المائدة - الآيات ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ .

(٣) انظر : العقود الدرية ، ص ٢٥٩ . ومجموع الفتاوى جزء

٢٨ ، ص ٥٠ .

سجن الشيخ مرة ثانية في القاهرة ... ولكن أعداءه ضاقوا به ذرعاً وهو في السجن ، فنفوه إلى الاسكندرية ، فهناك - على الأقل - يكون بعيداً عنهم ، إن لم يحصل من يؤذيه ويرتاحون منه ، ولكن حصل العكس فقد بدا الناس ياتون إليه ويسالونه ...

وهذه رسالة من أخيه شرف الدين عبد الله إلى أخيه لأمه بدر الدين المقيم في دمشق بعد أن توجه الشيخ إلى الاسكندرية يشرح فيها الحالة التي عليها شيخ الإسلام أحمد بن تيمية .

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله بن تيمية إلى أخيه بدر الدين :

سلام الله ورحمته وبركاته على الشيخ الإمام العالم الجليل بدر الدين ، وإلى الله عليه آلاءه وأتبعها ، وأسبغ عليه نعمه ونوعها ، وجمعنا وإياه في هذه الدار على طاعته ، وفي دار القرار في دار كرامته مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين أهل ولايته .

أما بعد : فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو وهو للحمد أهل ، وهو على كل شيء قدير . وأصلي على سيد ولد آدم ، وخير خلق الله أجمعين ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد ، فنحن والجماعة في نعم الله الكاملة ومنه الشاملة ؛ فمنها نزول الأخ الكريم بالشعر المحروس^(١) ، فإن أعداء الله قصدوا بذلك أموراً ، يكيدون بها للإسلام وأهله • وظنوا أن ذلك يحصل عن قريب ، فانقلبت عليهم مقاصدهم الخبيثة المعلومه ، وانعكست من كل الوجوه •

وأقبل أهل الثغر أجمعون إلى الأخ ، متقبلين لما يذكره وينشره من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، والخط والوقية في أعدائهما من أهل البدع والضلالات •

واتفق أنه وجد بها الفرق الضالة فكشف أسرارهم وفضحهم واستتاب جماعات منهم ، وتوبّ رئيساً من رؤسائهم • واشتھر ذلك واستقر عند عموم المؤمنين وخواصهم من أمير وقاضٍ ، وفقه ومفتٍ وشيخ وعموم المجاهدين ، وعلت كلمة الله بها على أعداء الله ورسوله •

فنسأل الله العظيم أن يجعل تمام النعمة عليهم ، وأن يقطع دابرهم وأن ينصر دينه وكتابه ورسوله •

نسأل الله العظيم أن يوفقك لما يحبه ويرضاه ، وأن يتولاك في جميع الأمور •

(١) يقصد الاسكندرية •

والسلام عليك ورحمة الله وبركاته ، وعلى السعيدة الكريمة
الطيبة رضي الله عنها وأرضاها ، الوالدة التي منحها الله تعالى
في آخر عمرها هذه الكرامة العظيمة والمنزلة الرفيعة والدرجة
العلية .

وأكمل السلام وأنمأه على جميع الأهل والإخوان ،
والأصحاب والمعارف والجيران . .

كُتِبَ والخاطر مشغول بأمر المسلمين ، والحمد لله رب
العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم
تسليماً (١) .

(١) العقود الدرية ، ص ٢٧٢ .

رسالة شيخ الإسلام ابن تيمية من سجنه بالاسكندرية إلى
اصحابه ، يحثهم فيها على التبتل والخشوع لله تعالى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« واما بنعمة ربك فحدث » (١) .

والذي أعرف به الجماعة أحسن الله إليهم في الدنيا وفي
الآخرة ، وأتم عليهم نعمته الظاهرة والباطنة ، فإنني - والله العظيم
الذي لا إله إلا هو - في نعم من الله ما رأيت مثلها في عمري كله .
وقد فتح الله سبحانه وتعالى من أبواب فضله ونعمته وخزائن
جوده ورحمته ما لم يكن بالبال ولا يدور في الخيال . هذا ويعرف
بعضها بالذوق من له نصيب من معرفة الله وتوحيده وحقائق
الإيمان ، وما هو مطلوب الأولين والآخرين من العلم والإيمان .

فإن اللذة والفرحة والسرور ، وطيب الوقت والنعيم الذي
لا يمكن التعبير عنه ، إنما هو في معرفة الله سبحانه وتعالى وتوحيده
والإيمان به ، واقتراح الحقائق الايمانية والمعارف القرآنية .

(١) سورة الضحى - الآية ١١ .

وقد قال بعض الشيوخ : لقد كنت في حال أقول فيها : (إن)
كان أهل الجنة في هذه الحال ، إنهم لفي عيش طيب) •

وقال آخر : (لتمر على القلب أوقات يرقص فيها طرباً ، وليس
في الدنيا يشبه نعيم الآخرة ، إلا نعيم الايمان والمعرفة) • ولهذا
كان النبي ﷺ يقول :

« أرحنا بالصلاة يا بلال » •

ولا يقول : أرحنا منها كما يقوله من تثقل عليه الصلاة ،
كما قال الله تعالى :

« وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين » (١) •

والخشوع : الخضوع لله تعالى والسكون والطمأنينة إليه
بالقلب والجوارح • وكان النبي ﷺ يقول :

« حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ النِّسَاءُ وَالطَّيِّبُ » ثم يقول :
« وجعلت قرّة عيني في الصلاة » •

ولم يقل حبب إليّ من دنياكم ثلاث ، كما يرفعه بعض الناس ،
بل هكذا رواه الامام أحمد والنسائي : أن المحبّب إليه من الدنيا
النساء والطيب ، وأما قرّة العين فتحصل بحصول المطلوب وذلك
في الصلاة •

والقلوب فيها وسواس النفس ، والشيطان يأمر بالشهوات
والشبهات ما يفسد عليه طيب عيشها • فمن كان محباً لغير الله فهو

(١) سورة البقرة : الآية ٤٥ •

معذب في الدنيا والآخرة • فإن نال مراده عذب به ، وإن لم ينله فهو في العذاب والحسرة والحزن •

وليس للقلوب سرور ولا لذة تامة ، إلا في محبة الله والتقرب إليه بما يحبه • ولا تمكن محبته إلا بالأعراض عن كل محبوب سواه • وهذا حقيقة لا إله إلا الله ، وهي ملة إبراهيم الخليل — عليه السلام — وسائر الأنبياء والمرسلين صلاة الله وسلامه عليهم أجمعين •

وكان النبي ﷺ يقول لأصحابه : « قولوا أصبحنا على فطرة الاسلام وكلمة الاخلاص ودين نبينا محمد ﷺ وملة ابينا إبراهيم حنيفاً مسلماً ، وما كان من المشركين » •

والخير كله في متابعة النبي ﷺ الذي يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، وأكثر الناس لا يعرفون حقائق ما جاء به ، إنما عندهم قسط من ذلك :

« والذين اهتموا بازادهم هدى وآتاهم تقواهم » (١) •

والانسان ظالم جاهل كما قال الله تعالى : « إنا عرضنا الامانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها واشفقن منها ، وحملها الانسان إنه كان ظلوماً جهولاً » (٢) •

(١) سورة محمد : الآية ١٧ •

(٢) سورة الاحزاب : الآية ٧٢ •

وإنما غاية أولياء الله المتقين وحزبه المفلحين وجنده الغالبين
التوبة ، ولهذا كان الدين مجموعاً في التوحيد والاستغفار •
قال تعالى :

« فاستقيموا إليه واستغفروه » (١) •

ففعل جميع المأمورات وترك جميع المحظورات ، يدخل في
التوحيد في قول : لا إله إلا الله •

والعبد إذا أنعم الله عليه بالتوحيد ، فشهد أن لا إله إلا الله
مخلصاً من قلبه ، حلاله الله بالأمن والسرور والحبور والرحمة
للخلق •

والخوف الذي يحصل في قلوب الناس ، هو الشرك الذي
في قلوبهم • قال تعالى :

« سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما اشركوا » (٢) •

وفي الحديث الصحيح : « تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ،
تعس عبد الخميصة ، تعس عبد الخميعة ، تعس وانتكس ، وإذا
شيك فلا انتكس » •

ولما خوفوا الخليل عليه السلام بما يعبدونه ويشركون به ،
قال الخليل :

(١) سورة فصلت : الآية ٦ •

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٥١ •

« وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً ، فاي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون » (١) .

ولهذا قال الإمام أحمد ^{من} لبعض الناس : (لو صححت لم تخف أحداً) (٢) . وكل وافق الرسول ﷺ في أمره فله ، نصيب من قوله :
« لا تحزن إن الله معنا » (٣) .

فإن المعية الإلهية المتضمنة للنصر ، هي لما جاء به إلى يوم القيامة . وهذا قد دلّ عليه القرآن ، وقد رأينا من ذلك وجرّنا ما يطول وصفه .

ومن شئنا ما جاء به الرسول ﷺ ، فله من ذلك نصيب .
« إن شأنتك هو الأبتَر » (٤) .

ولهذا قال أبو بكر بن عياش : ولكن أهل السنة يقولون ويبقى ذكرهم ، وأهل البدعة يموتون ويموت ذكرهم . وذلك أن أهل البدعة شنّوا ما جاء به الرسول ﷺ فأبترهم بقدر ذلك .

(١) سورة الانعام : الآية ٨١ .

(٢) اي لو صححت اعتقادك .

(٣) سورة التوبة : الآية ٤٠ .

(٤) سورة الكوثر : الآية ٣ .

والذين أعلنوا ماجاء به النبي ﷺ فصار لهم نصيب من قوله تعالى :

«ورفعنا لك ذكرك» (١) .

وكل من دعا غير الله فهو مشرك ، والعيان يصدق هذا ؛ فإن المخلوقين إذا اشتكى إليهم الانسان فضررهم أقرب من نفعهم . وهذا باب واسع قد كتبت فيه شيئاً كثيراً ، وعرفته علماً وذوقاً وتجربة .

وفي الجملة : ما يبين نعم الله التي أنعم بها عليّ وأنا في هذا المكان ، أعظم قدراً وأكثر عدداً مالا يمكن حصره . وأكثر ما ينقص عليّ الجماعة (١) ، فأنا أحب لهم أن ينالوا من اللذة والسرور والنعيم ما تقر به أعينهم ، وأن يفتح لهم من معرفة الله وطاعته والجهاد في سبيله ما يصلون به إلى أعلى الدرجات . . .

والمقصود إخبار الجماعة بأن نعم الله علينا فوق ما كانت بكثير . ونحن بحمد الله في زيادة من نعم الله ، وإن لم يمكن خدمة الجماعة باللقاء ، فأنا داعٍ لهم بالليل والنهار قياماً ببعض الواجب من حقهم ، وتقرباً إلى الله تعالى في معاملته فيهم . والذي أمر به كل شخص منهم : أن يتق الله ويعمل لله ، مستعيناً

(١) سورة الانشراح : الآية ٤ .

(٢) يقصد إخوانه في دمشق .

بالله ، مجاهداً في سبيل الله ، ويكون دعاؤه وغيره بحسب ذلك
كما أمر الله به ورسوله :

اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات ، وألف
بين قلوبهم ، وأصلح ذات بينهم ، وانصرهم على عدوك وعدوهم
وجنبهم الفواحش ماظهر منها وما بطن .

اللهم انصر كتابك ودينك وعبادك المؤمنين . اللهم عذب
الكفار والمنافقين الذين يصدون عن سبيلك ويدلون دينك .

اللهم أنزل بأسك الذي لا يردُّ عن القوم المجرمين . اللهم
مجري السحاب ، ومنزل الكتاب ، وهازم الأحزاب اهزمهم
وزلزمهم وانصرنا عليهم ...

ربنا أعنّا ولا تعن علينا ، وانصرنا ولا تنصر علينا ، وامكر
لنا ولا تمكر علينا ، وانصرنا على من بغى علينا ..

ربنا اجعلنا لك شاكرين مطاوعين مخبئين ...

ربنا تقبل توبتنا ، واغسل حوبتنا ، وثبت حجتنا ، وسدد
ألسنتنا ، واسلل سخائم صدورنا ...

والحمد لله ناصر السنة وخاذل أهل البدعة ، وصلى الله
على محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً^(١) .

(١) انظر مجموع الفتاوى - جزء ٢٨ ، ص ٣٠

رجع الشيخ إلى القاهرة بعد قضاء ثمانية أشهر في سجن الاسكندرية . ورجوعه هذه المرة كان بأمر السلطان « محمد بن قلاوون » ، وكان يعظم الشيخ ويعرف قدره . وكان السلطان قد استعاد ملكه من « ركن الدين الجاشنكير » . ولذلك رجع الشيخ وهو معزز مكرم، وسكن بجانب مسجد الحسين، وأخذ يث علمه . وله مع السلطان مواقف محمودة ، وأرسل من القاهرة هذه الرسالة إلى اهله حيث طلب فيها بعض كتبه لحاجته إليها ، وهو مع ذلك لم يعزم على الإقامة هناك . . يقول :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تعلمون أننا بحمد الله في نعم عظيمة ، ومنن جسيمة وآلاء متكاثرة وأياد متظاهرة ، لم تكن تخطر لأكثر الخلق ببال ولا تدور لهم في خيال . والحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى .

والحق دائماً في انتصار وعلوّ وازدياد ، والباطل في انخفاض وسفال ونقاد . وقد أخضع الله رقاب الخصوم ، وطلب أكابرهم من السلم والالتقياد ما يطول وصفه .

ونحن والحمد لله ، قد اشترطنا عليهم في ذلك من الشروط ما فيه عز الاسلام والسنة وانقماص الباطل والبدعة ، وقد دخلوا في ذلك كله . وامتنعنا حتى يظهر ذلك الى الفعل ، فلم نثق لهم بقول ولم نجيبهم إلى مطلوبهم ، حتى يصير المشروط معمولاً ، والمذكور مفعولاً ، ويظهر من عز الاسلام والسنة للخاصة والعامة ما يكون من الحسنات التي تمحو سيئاتهم .

وكذلك جرى من الأسباب التي هي عز الاسلام وذلك المشركين مما هو من أعظم نعم الله على عباده المؤمنين ، ووصف هذا يطول .

وقد أرسلت إليكم كتاباً أطلب ما صنفته في أمر الكنائس ، وهي كرايس بخطي ، قطع النصف بلدي . وترسلون ذلك إن شاء الله تعالى ، وتستعينون على ذلك بالشيخ « جمال الدين المزي » ، فإنه يقلب الكتب ويخرج المطلوب . وترسلون أيضاً من تعليق القاضي « أبي يعلى » الذي بخط القاضي « أبي الحسين » إن أمكن الجميع ، وهو أحد عشر مجلداً ، وإلا فمن أوله مجلداً ، أو مجلدين أو ثلاثة . . . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

كانت رحلة الشيخ إلى مصر ميمونة ، وإن كانت شاقة
مجهدة ... وآن له أن يرجع إلى دمشق فعاد مع الجيش المصري
الذي جاء لصد التتار ، ورجع إلى التدريس ونشر العلم وتصنيف
الكتب والافتاء ... وفي بحثه واقتائه وصل إلى مسائل يخالف
فيها بعض المذاهب ...

وهنا عاد الحسد والكيد ، ولكن الشيخ لا يمكن أن يتراجع عن
شيء يعتقد أنه صحيح .. ولذلك قرروا سجنه في القلعة في دمشق ..
فأظهر الشيخ السرور بذلك وقال : « انا كنت منتظراً ذلك ، وهذا
فيه خير عظيم » . وكأنه أراد أن يرتاح قليلاً ، ويستغل بذكر الله ..
لقد سجنوه وأخرجوا الكتب من عنده .. ومع ذلك كتب في سجنه
في الرد على « ابن الأختائي المالكي » في قضية « شد الرحال » ،
وكتب جملة من تفسير القرآن ... وأرسل من سجن القلعة بدمشق
هذه الرسالة :

بسم الله الرحمن الرحيم

[ونحن لله الحمد والشكر في نعم عظيمة ، تتزايد كل يوم ،
وخروج الكتب كان من أعظم النعم ، فإني كنت حريصاً على خروج
شيء منها لتقفوا عليه ، وهم كرهوا خروج (الأختائية) فاستعلمهم
الله في إخراج الجميع ، وإلزام المنازعين بالوقوف عليه . فإن هذه

المسائل كانت خفيفة على أكثر الناس . فإذا ظهرت : فمن كان قصده الحق هداه الله ، ومن كان قصده الباطل قامت عليه حجة الله .

وما كتبت شيئاً من هذا ليكنتم عن أحد ولو كان مبغضاً .
والأوراق التي فيها جواباتكم وصلت ، وأنا طيب وعيناي طيبتان
أطيب ماكاتنا . ونحن في نعم عظيمة لاتحصى ولا تعد . والحمد
لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه .

وكل مايقضيه الله تعالى فيه الخير والرحمة والحكمة :

« إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم » (١) . [

ثم منع عن الشيخ الاقلام والخبر ، فبعث بهذه الرسالة إلى
أخوانه وقد كتبها بالفحم ، وبقي الشيخ بالقلعة حتى اتاه اليقين .
يقول في آخر رسالة له :

[سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، ونحن لله الحمد والشكر
في نعم متزايدة ، وجميع ما يفعله الله فيه نصر " للإسلام :

« هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على
الدين كله ولو كره المشركون » (٢) .

(١) سورة يوسف : الآية ١٠٠ . انظر « مجموع الفتاوى » ،

جزء ٢٨ ، ص ٤٧ . « والعقود الدرية » ، ص ٣٢٨ .

(٢) سورة التوبة : الآية ٣٣ .

ومن سنة الله أنه إذا أراد إظهار دينه ، أقام من يعارضه فيحقق الحق بكلماته ، ويقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق . والذي سعى فيه حزب الشيطان ، لم يكن مخالفة لشرع محمد ﷺ ؛ بل مخالفة لدين جميع المرسلين : إبراهيم وموسى والمسيح ومحمد خاتم النبيين صلى الله عليهم أجمعين .

وكانوا قد سعوا في أن لا يظهر من جهة حزب الله ورسوله خطاب ولا كتاب ، وجزعوا من ظهور « الأخنائية » فاستعملهم الله تعالى حتى أظهروا أضعاف ذلك . ومقصودهم إظهار عيوبه ، فلم يجدوا إلا ما هو حجة عليهم ، ولم يمكنهم أن يظهروا علينا عيباً في الشرع والدين ، بل غاية ما عندهم : أنه خولف مرسوم بعض المخلوقين ^(١) . والمخلوق كائناً من كان ، إذا خالف أمر الله تعالى ورسوله لم يجب ، بل ولا يجوز طاعته .

وقول القائل : إنه يظهر البدع ، كلام يظهر فساد له لكل مستبصر ، ويعلم أن الأمر بالعكس . وهذه قضية كبيرة لها شأن « ولتعلمن نبأه بعد حين » (٢) .

(١) يقصد مرسوم السلطان « قلاوون » في منعه بالافتاء في قضية الطلاق ، ومسألة شد الرحال لزيارة القبور ، ولكنه رفض هذا لأنه لا يكتف العلم .

(٢) سورة ص : الآية ٨٨ .

وكانوا يطلبون تمام « الأخنائية » ، فعندهم ما يطعمهم
أضعافها وأقوى فقهاً منها ، وما فعلوه هو جهل منهم ، فقد دخلوا
في شيء ما كانوا يعرفونه ، والأمر أعظم مما ظهر لكم . ونحن والله
الحمد على عظيم الجهاد في سبيله . بل جهادنا في هذا مثل جهاد
يوم « قازان » ^(١) ، والجبليّة والجهمية ، والاتحادية ^(٢) . وأمثال
ذلك . وذلك من أعظم نعم الله علينا وعلى الناس ، ولكن أكثر
الناس لا يعلمون [. . .] .

(١) ملك التتار الذي ناقشه ابن تيمية وشدد عليه ، ثم قاتلهم
بنفسه في موقعة « شقحب » .

(٢) أصحاب القول بالاتحاد بين الخلق والخالق وهم كفره .



رسالة شيخ الاسلام احمد بن تيمية إلى الشيخ « نصر المنبجي » .

والشيخ « نصر المنبجي » من شيوخ الصوفية الذين حرّضوا « ركن الدين الجاشنكير » ، على ابن تيمية . ولذلك ابعدته إلى الاسكندرية فقد كان المنبجي من شيوخ الجاشنكير ، وله تأثير قوي عليه . . .

ومع ذلك نلاحظ ان ابن تيمية يتلطف معه ، وينصحه : بان إشارات الصوفية وحبهم يجب ان يكون واضحاً وهو الحب لله ولرسوله ولشرعه ، وان يلتزموا بشرعه ، اما الحب العام الهائم ، فهذا لا يفيد شيئاً . قال رحمه الله :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

من أحمد بن تيمية إلى الشيخ العارف القدوة ، السالك الناسك (أبي الفتح نصر) فتح الله على باطنه وظاهره ما فتح به على قلوب أوليائه ، ونصره على شياطين الانس والجن في جهره وإخفائه . ونهج به الطريقة المحمدية الموافقة لشرعته ، وكشف به الحقيقة الدينية المميزة بين خلقه وطاعته .

أما بعد : فإن الله تعالى قد أنعم على الشيخ ، وأنعم عليه نعمة باطنة وظاهرة في الدين والدنيا ، وجعل له عند خاصة المسلمين

— الذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً — منزلة عليّة، ومودة إلهية ، لما منحه الله تعالى به من حسن المعرفة والقصد ، وقد بعث الله محمداً ﷺ بأكمل محبة في أكمل معرفة ، فأخرج بمحبة الله ورسوله المحبة التي فيها اشراك وإجمال كما قال الله تعالى :
« ومن الناس من يتخذ من دون الله انداداً يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حبا لله » (١) .

ولهذا كانت المحبة الإيمانية هي الموجبة للذوق الإيماني ، والوجد الديني ، كما في الصحيحين عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ :

« ثلاث من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان في قلبه : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله ، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه ، كما يكره أن يلقى في النار » .

فجعل صلى الله تعالى عليه وسلم وجود حلاوة الإيمان معلقاً بمحبة الله ورسوله الفاضلة ، وبالمحبة فيه في الله ، وبكراهة ضد الإيمان . وفي صحيح مسلم عن العباس قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم :

« ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً ، وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً » .

(١) سورة البقرة : الآية ١٦٥ .

فجعل ذوق طعم الايمان معلقاً بالرضى بهذه الأصول ، كما جعل الوجد معلقاً بالمحبة ، ليفرق صلى الله تعالى عليه وسلم بين الذوق والوجد الذي هو أصل الأعمال الظاهرة وثمره الأعمال الباطنة، وبين ما أمر الله به ورسوله ﷺ وبين غيره، كما قال سهل بن عبد الله التستري : (كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل) .

ولهذا طالب الله تعالى مدعي محبته بقوله :
« إن كنتم تحبون الله فاتبعوني ، يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم » (١) .

قال الحسن البصري : (ادعى قوم على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنهم يحبون الله ، فطالبهم بهذه الآية) .
 فجعل محبة العبد لله موجبة لمتابعة رسوله ، وجعل متابعة رسوله موجبة لمحبة الرب عبده .

وقد ذكر نعت المحبين في قوله :
« فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه اذلة على المؤمنين اعزة على الكافرين، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم » (٢)
 فنعت المحبين المحبوبين بوصف الكمال الذي نعت الله به رسوله الجامع بين معنى الجلال والجمال ، المتفرق في الملتين قبلنا :

(١) سورة آل عمران : الآية ٣١ .

(٢) سورة المائدة : الآية ٥٤ .

وهو الشدة والعزة على أعداء الله ، والذلة والرحمة لأولياء الله
ورسوله . ولهذا يوجد كثير ممن له وِجْدٌ وحُبٌ مجمل مطلق
كما قال فيه كبير من كبرائهم :

مُشرد عن الوطن
مبعد عن السكن
بيكي الطول والدمن^(١)
يهوى ولا يدري لمن ؟

فالشيخ - أحسن الله إليه - قد جعل الله فيه من المعرفة
ما تتميز به المحبة الايمانية الحمديدية المفصلة عن المجملية المشتركة .

ولهذا جاءت الشريعة الكاملة في العبادة باسم الله ، وفي
السؤال باسم الرب فيقول المصلي والذاكر : الله أكبر ، وسبحان
الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله . وفي السؤال :

« ربنا ظلمنا أنفسنا » (٢) ، « رب اغفر لي ولوالدي » (٣) ،
« ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا » (٤) .
وكثير من المتوجهين السالكين^(٥) يشهد في سلوكه الربوبية

(١) هكذا والظاهر أنها الطلل .

(٢) سورة الاعراف - الآية ٢٣ .

(٣) سورة نوح - الآية ٢٨ .

(٤) سورة آل عمران - الآية ١٤٧ .

(٥) أي من الصوفية .

والقيومية الكاملة الشاملة لكل مخلوق ، فيغيب ويفنى بهذا التوحيد الرباني عما هو مأمور به أيضاً ومطلوب منه ، وهو محبوب الحق ومرضيه من التوحيد الالهي ، الذي هو عبادته وحده لا شريك له وطاعته وطاعة رسوله ، والأمر بما أمر به ، والنهي عما نهى عنه ، والحب فيه ، والبغض فيه . ومن أعرض عن هذا التوحيد وأخذ بالأول ، فهو يشبه القدرية المشتركة الذين قالوا :

« لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا » .

ومن أخذ بالثاني دون الأول : فهو من القدرية المجوسية الذين يزعمون أن الله لم يخلق أفعال العباد ، ولا شاء جميع الكائنات . والأول ذهب إليه طوائف من الإباحية المنحلين عن الأوامر والنواهي وإنما يستعملون ذلك عند أهوائهم وإلا فهو لا يستمر ، وهو كثير في المتألهة الخارجين عن الشريعة ، فأن لهم زهاوات وعبادات فيها ماهو غير مأمور به ، فيفيدهم أحوالاً فيها ما هو فاسد ؛ يشبهون من بعض الوجوه الرهبان وعباد البدود^(١) .

ولهذا قال الشيخ «عبدالقادر» قدس الله روحه : (كثير من الرجال إذا دخلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا وأنا انفتحت لي فيه روزنة^(٢)) فنازعت أقدار الحق بالحق للحق ، والولى من يكون منازعاً للقدر لا من يكون موافقاً له) .

(١) جمع بد وهو من اصنام الهنود .

(٢) روزنة : كوة او فتحة .

وهذا الذي قاله الشيخ تكلم به على لسان المحمدية ، أي
أن المسلم مأمور أن يفعل ما أمر الله به ، ويدفع ما نهى الله عنه ،
وإن كانت أسبابه قد قدّرت فيدفع قدر الله بقدر الله ، كما جاء في
الحديث الذي رواه الطبراني في كتاب الدعاء عن النبي ﷺ :

« إن الدعاء والبلاء ليلتقيان بين السماء والأرض » .
وفي الترمذي : (قيل يا رسول الله ، أرايت أدوية نتداوى بها
ورقى نسترقى بها ، وتقى نتقيها . هل ترد من قدر الله شيئاً) ؟
فقال : « هن من قدر الله » .

والمسلم يرى أنه ما من دابة الا ربي آخذ بناصيتها ، وأنه
على كل شيء وكيل ، وأنه رب العالمين ، وأن قلوب العباد
ونواصيهم بيده ، لا خالق غيره ولا نافع ولا ضار ، ولا معطي
ولا مانع ولا حافظ ولا معز ولا مذل سواه . ويشهد أيضاً فعل
المأمورات مع كثرتها ، وترك الشبهات مع كثرتها لله وحده
لا شريك له .

وهذا هو الدين الجامع العام الذي اشترك فيه جميع
الأنبياء ، والإسلام العام والإيمان العام . وبه نزلت السور المكية
وإليه الإشارة بقوله تعالى :

« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك
وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى: ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا
فيه » (١) . وبقوله : (ولقد بعثنا في كل امة رسولا ان اعبدوا الله
واجتنبوا الطاغوت » (٢) .

(١) سورة الشورى — الآية ١٣ .

(٢) سورة النحل — الآية ٣٦ .

ولهذا ترجم البخاري عليه : (باب ما جاء أن دين الأنبياء
واحد) •

وقد قال تعالى :

« إن الذين آمنوا والذين هادوا وال نصارى والصابئين من
آمن بالله واليوم الآخر ، وعمل صالحاً فلهم اجرهم عند ربهم
ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (١) •

فجمع في الملل الأربع : (من آمن بالله واليوم الآخر وعمل
صالحاً) وذلك قبل النسخ والتبديل •

وخص في أول الآية المؤمنين : وهو الإيمان الخاص الشرعي
الذي قاله فيه :

(لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً) (٢) •

والشرعة والمنهاج الإسلاميان ، فهو لأمة محمد ﷺ :
« خير أمة أخرجت للناس » (٣) ، وبها أنزلت السور المدنية ،
إذ في المدينة النبوية شرعت الشرائع ، وسنت السنن ، ونزلت
الأحكام والفرائض والحدود •

وقد بلغني أن بعض الناس ذكر عند خدمتكم الكلام في

(١) سورة البقرة — الآية ٢٧٤ •

(٢) سورة المائدة — الآية ٤٨ •

(٣) سورة آل عمران — الآية ١١٠ •

مذهب الاتحادية^(١) وكنت قد كتبت إلى خدمتكم كتاباً اقتضى الحال من غير قصد أن أشرت فيه إشارة لطيفة إلى حال هؤلاء . ولم يكن القصد والله واحداً بعينه ، وإنما الشيخ هو مجمع المؤمنين ، فعلينا أن نعيّنه في الدين والدنيا بما هو اللائق به .

وقد كتبت في ذلك كتاباً ربما يرسل إلى الشيخ ، وقد كتب سيدنا الشيخ « عماد الدين » في ذلك رسائل ، والله تعالى يعلم — وكفى به عليماً — لولا أنني أرى دفع ضرر هؤلاء^(٢) عن أهل طريق الله السالكين إليه من أعظم الواجبات لم يكن للمؤمنين بالله ورسوله حاجة إلى أن تكشف أسرار الطريق . ولكن الشيخ أحسن الله تعالى إليه ، يعلم أن مقصود الدعوة النبوية ، بل المقصود بخلق الخلق ، وإنزال الكتب وإرسال الرسل أن يكون الدين كله لله .

وكثيراً ما كنت أظن أن ظهور مثل هؤلاء من أكبر أسباب ظهور التتار واندراس شريعة الإسلام ، وأن هؤلاء مقدمة الدجال الأعور الكذاب الذي يزعم أنه هو الله . وقولهم يجمع كل شرك في العالم ، وهم لا يوحّدون الله سبحانه وتعالى ، وإنما يوحّدون القدر المشترك بينه وبين المخلوقات ، فهم بربهم يعدلون .

(١) أي اتحاد الله في خلقه ، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

(٢) أي الاتحادية .

ولهذا حدثني الثقة أن أحدهم كان يريد الذهاب إلى الهند
وقال : إن أرض الإسلام لا تسعه ، لأن الهند مشركون يعبدون
كل شيء حتى النبات والحيوان •

ولو سلك هؤلاء طريق الأنبياء والمرسلين عليهم السلام
واتبعوا طريق السابقين الأولين ، لسلکوا طريق الهدى ووجدوا
برد اليقين وقرّة العين •

وأنا أسأل الله العظيم أن يصلح أمر المسلمين عامتهم وخاصتهم
وأن يجعل الشيخ من دعاة الخير الذين قال الله سبحانه فيهم :
« ولتكن منكم أمة : يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف
وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » (١) •

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته (٢) •

(١) سورة آل عمران - الآية ١٠٤ •

(٢) من مجموع الفتاوى لابن تيمية ، طبعة الرياض ، جزء ٢
صفحة ٤٥٢ ، بتصرف •



رسالة إمام المتقين شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية ،
إلى ملك قبرص ورؤساء الدين والأمراء والكتاب وأتباعهم لما
سئِلَ عن مسائل أرادوا تفهّمها : فشرح لهم رسالة الأديان التي
سبقت أكمل الرسائل ، وفرّق بين مفهوم المسلمين لها وبين
ما طرا على تلك العقائد آنذاك من تحريف وطمس لشريعة التوحيد .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« من أحمد بن تيمية إلى سرجواس عظيم أهل ملته ، ومن
تحوط به عنايته من رؤساء الدين ، وعظماء القسيسين ، والرهبان ،
والأمراء ، والكتاب ، وأتباعهم : سلام على من اتبع الهدى » .

أما بعد : فإننا نحمد إِيَّكم الله الذي لا إله إلا هو إله إبراهيم
وآل عمران ، ونسأله أن يصلي على عباده المصطفين وأنبيائه
المرسلين ، ويخص بصلاته وسلامه أولي العزم الذين هم سادة
الخلق وقادة الأمم ، الذين خُصُّوا بأخذ الميثاق وهم : « نوح
وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد » كما سماهم الله تعالى في كتابه
فقال عز وجل :

(شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذي اوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى : ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبرَ على المشركين ما تدعوهم إليه . الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب) (١) . وقال تعالى : (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم واخذنا منهم ميثاقاً غليظاً ليسال الصادقين عن صدقهم واعدّ للكافرين عذاباً اليماً) (٢) .

ونسأله أن يخص بشرائف صلاته وسلامه خاتم المرسلين ، وخطيبهم إذا وفدوا على ربهم وإمامهم إذا اجتمعوا ، شفيح الخلائق يوم القيامة ، نبي الرحمة ونبي الملحمة ، الجامع محاسن الأنبياء ، الذي بشر به عبد الله وروحه وكلمته التي ألقاها إلى الصديقة الطاهرة البتول التي لم يمسها بشر قط مريم ابنة عمران ، ذلك مسيح الهدى عيسى بن مريم ، الوجه في الدنيا والآخرة ، المقرب عند الله ، المنعوت بنعت الجمال والرحمة لما انجر بنو إسرائيل فيما بعث به موسى من نعت الجلال والشدة ، وبعث الخاتم الجامع بنعت الكمال المشتغل على الشدة على الكفار والرحمة بالمؤمنين ، والمحتوي على محاسن الشرائع والمناهج التي كانت قبله ، صلى الله عليهم وسلم أجمعين ، وعلى من تبعهم إلى يوم القيامة .

(١) سورة الشورى - الآية ١٣ .

(٢) سورة الاحزاب - الايتان ٧ ، ٨ .

أما بعد : فإن الله خلق الخلائق بقدرته ، وأظهر فيهم آثار مشيئته وحكمته ورحمته ، وجعل المقصود الذي خلقوا له فيما أمرهم به هو عبادته . وأصل ذلك هو معرفته ومحبته ، فمن هداه الله صراطه المستقيم آتاه رحمة وعلماً ومعرفة بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، ورزقه الإنابة إليه والوجل لذكره ، والخشوع له والتأله له ، فحنَّ إليه حنين النور إلى أوكارها وكلف بحبه كلف الصبي بأمه ، لا يعبد إلا إياه رغبة ورهبة ومحبة ، وأخلص دينه لمن الدنيا والآخرة له ، رب الأولين والآخرين ، مالك يوم الدين ، خالق ما تبصرون وما لا تبصرون ، عالم الغيب والشهادة الذي أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون . لم يتخذ من دونه أنداداً كالذين اتخذوا من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حباً لله ، ولم يشرك بربه أحداً ، ولم يتخذ من دونه ولياً ولا شفيعاً ، لا ملكاً ولا نبياً ولا صديقاً ، فإن كل من في السموات والأرض إلا آتِ الرحمن عبداً . لقد أحصاهم وعدَّهم عدداً ، وكلهم آتية يوم القيامة فرداً . فهناك اجتباها مولاه واصطفاه وآتاه رشده ، وهده لما اختلف فيه من الحق بإذنه فإنه يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

وذلك أن الناس كانوا بعد آدم عليه السلام وقبل نوح عليه السلام على التوحيد والإخلاص كما كان عليه أبوهم آدم

أبو البشر عليه السلام حتى ابتدعوا الشرك وعبادة الأوثان ،
بدعة من تلقاء أنفسهم ، لم ينزل الله بها كتاباً ، ولا أرسل
بها رسولا ، بشبهات زينها الشيطان من جهة المقاييس الفاسدة ،
والفلسفة الحائدة ، قوم منهم زعموا أن التماثيل طلاس
الكواكب السماوية ، والدرجات الفلكية ، والأرواح العلوية ،
وقوم اتخذوها على صورة من كان فيهم من الأنبياء والصالحين ،
وقوم جعلوها لأجل الأرواح السفلية من الجن والشياطين ،
وقوم على مذاهب آخر .

وأكثرهم لرؤسائهم مقلدون ، وعن سبيل الهدى ناكبون ،
فابتعث الله نبيه نوحاً عليه السلام يدعوهم إلى عبادة الله وحده
لا شريك له ، وينهاهم عن عبادة ما سواه وإن زعموا أنهم
يعبدونهم ليتقربوا بهم إلى الله زلفى ويتخذوهم شفعاء ، فمكث
فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، فلما أعلمه الله أنه لن يؤمن من
قومك إلا من قد آمن ، دعا عليهم فأغرق الله تعالى أهل الأرض
بدعوته ، وجاءت الرسل بعده تتسرى إلى أن عمّ الأرض دين
الصائبة والمشركين ، لما كان النماردة والفراغة ملوك الأرض
شرقا وغربا ، فبعث الله تعالى إمام الحنفاء وأساس الملة الخالصة
والكلمة الباقية إبراهيم خليل الرحمن ، فدعا الخلق من الشرك
إلى الإخلاص ونهاهم عن عبادة الكواكب والأصنام ، وقال :

(وجئته وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من
المشركين) (١) وقال لقومه : (افرايتم ما كنتم تعبدون انتم وآباؤكم
الأقدمون . فإنهم عدوئي إلا رب العالمين . الذي خلقني فهو يهدين ،
والذي هو يطمعني ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين ، والذي
يميتني ثم يحيين ، والذي اطمع ان يغفر لي خطيئتي يوم الدين) (٢) .

وقال إبراهيم عليه السلام ومن معه لقومهم : (إنا برآء منكم
ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم ، وبدا بيننا وبينكم العداوة
والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده) (٣) .

فجعل الله الأنبياء والمرسلين من أهل بيته ، وجعل لكل
منهم خصائص ورفع بعضهم فوق بعض درجات ، وآتى كلا
منهم من الآيات ما آمن على مثله البشر .

فجعل لموسى العصا حية حتى ابتلعت ما صنعت السحرة . . من
الجبال والعصى ، وكانت شيئاً كثيراً ، وفلق له البحر حتى صار
يابساً ، والماء واقفاً حاجزاً بين اثني عشر طريقاً على عدد الأسباط . .
وظلل عليه وعلى قومه الغمام الأبيض يسير معهم ، وأنزل عليهم
صبيحة كل يوم المن والسلوى ، وإذا عطشوا ضرب موسى بعصاه
الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً قد علم كل أناس مشربهم .

(١) سورة الانعام — الآية ٧٩ .

(٢) سورة الشعراء — الآيات : ٧٥ — ٨٢ .

(٣) سورة الممتحنة — الآية ٤ .

وبعث بعده أنبياء من بني إسرائيل منهم من أحيا الله على يده الموتى ، ومنهم من شفى الله على يده المرضى ، ومنهم من أطلعه على ما شاء من غيبه ، ومنهم من سخر له المخلوقات . ومنهم من بعثه بأنواع المعجزات .

وهذا مما اتفق عليه جميع أهل الملل وفي الكتب التي بأيدي اليهود والنصارى والنبوات التي عندهم وأخبار الأنبياء عليهم السلام ، مثل : « شعيا وأرميا ودانيال وحقوق وداود وسليمان » وغيرهم ، وكتاب « سفر الملوك » وغيره من الكتب ما فيه معتبر .

وكانت بنو إسرائيل أمة قاسية عاصية ، تارة يعبدون الأصنام والأوثان ، وتارة يعبدون الله ، وتارة يقتلون النبيين بغير الحق ، وتارة يستحلون محارم الله بأدنى الحيل ، فلعنوا أولاً على لسان داود ، وكان من خراب بيت المقدس ما هو معروف عند أهل الملل كلهم .

ثم بعث الله المسيح بن مريم رسولا قد دخلت من قبله الرسل وجعله وأمه آية للناس ، حيث خلقه من غير أب إظهاراً لكمال قدرته ، وشمول كلمته حيث قسم النور الإنساني الأقسام الأربعة ، فجعل آدم من غير ذكر ولا أنثى ، وخلق زوجه حواء من ذكر بلا أنثى ، وخلق المسيح بن مريم من أنثى بلا ذكر ، وخلق سائرهم من الزوجين الذكر والأنثى . وآتى عبده المسيح من الآيات البيّنات ما جرت به سنته فأحيا الموتى ، وأبرأ

الأكمة والأبرص ، وأنبا الناس بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم ، ودعا إلى الله وإلى عبادته متبعاً سنة إخوانه المرسلين ، مصداقاً لمن قبله ومبشراً بمن يأتي بعده .

وكان بنو إسرائيل قد عتوا وتمردوا ، وكان غالب أمره اللين والرحمة والعفو والصفح ، وجعل في قلوب الذين اتبعوه رافة ورحمة ، وجعل منهم قسيسين ورهباناً ، فتفرق الناس في المسيح عليه السلام ومن اتبعه من الحواريين ثلاثة أحزاب : قوم كذبوه وكفروا به وزعموا أنه ابن بغي ، ورموا أمه بالفرية ونسبوه إلى «يوسف النجار» ، وزعموا أن شريعة التوراة لم ينسخ منها شيء ، وأن الله لم ينسخ ما شرعه بعدما فعلوه بالأنبياء ، وما كان عليهم من الآصار في النجاسات والمطاعم . وقوم غلوا فيه وزعموا أنه الله وابن الله وأن اللاهوت تدرع الناسوت وأن رب العالمين نزل وأنزل ابنه ليصلب ويقتل فداء لخطيئة آدم عليه السلام، وجعلوا الإله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد قد ولد واتخذ ولداً . . .

وتفرقوا في التثليث والاتحاد تفرقاً ، وتشتتوا تشتتاً لا يقر به عاقل ولم يجر به نقل إلا كلمات متشابهات في الإنجيل وما قبله من الكتب ، قد يبيتها كلمات محكمات في الإنجيل وما قبله ، كلها تنطق بعبودية المسيح وعبادته لله وحده ودعائه وتضرعه .

ولما كان أصل الدين هو الإيمان بالله ورسوله كما قال خاتم النبيين والمرسلين : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » . وقال :

« لا تطروني كما اطرت النصارى عيسى بن مريم فإنما أنا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله » .

كان أمر الدين توحيد الله والإقرار برسله . ولهذا كان الصابئون والمشركون كالبrahمة ونحوهم من منكري النبوات مشركين بالله في إقرارهم وعبادتهم وفاسدي الاعتقاد في رسله .

فأرباب التثليث في الوجدانية والاتحاد في الرسالة قد دخل في أصل دينهم من الفساد ما هو يئس بفطرة الله التي فطر الناس عليها وبكتب الله التي أنزلها .

ولهذا كان عامة رؤسائهم من القسيسين والرهبان ما يدخل فيهم من البطارقة والمطارنة والأساقفة إذا صار الرجل منهم فاضلاً مميّزاً فإنه ينحل عن دينه ويصير منافقاً للملوك أهل دينه وعامتهم رضى بالرياسة عليهم وبما يناله من الحفظ : كالذي كان لبيت المقدس الذي يقال له «ابن البوري»، والذي كان بدمشق الذي يقال له «ابن القف»، والذي بقسطنطينية وهو الباباعندهم، وخلق كثير من كبار الباباوات والمطارنة والأساقفة لما خاطبهم قوم من الفضلاء أقرؤا لهم بأنهم ليسوا على عقيدة النصارى وإنما بقاؤهم على ما هم عليه لأجل العادة والرياسة ، كبقاء الملوك والأغنياء على ملكهم وغناهم ، ولهذا تجد غالب فضلائهم إنما همة أحدهم نوع من

العلم الرياضي كالمنطق والهيئة والحساب والنجوم ، أو الطبيعي كالتب ومعرفة الأركان ، أو التكلم في الإلهي على طريقة الصابئة الفلاسفة الذين بعث إليهم إبراهيم الخليل عليه السلام ، قد نبذوا دين المسيح والرسل الذين قبله وبعده وراء ظهورهم وحفظوا رسوم الدين لأجل الملوك والعامة ...

ثم إن هؤلاء عمدوا إلى الشريعة التي يعبدون الله بها فناقضوا الأولين من اليهود فيها مع أنهم يأمرؤن بالتمسك بالتوراة إلا ما نسخه المسيح . قصر هؤلاء في الأنبياء حتى قتلؤهم ، وغلا هؤلاء فيهم حتى عبدؤهم وعبدوا تماثلهم . وقال أولئك إن الله لا يصلح له أن يغير ما أمر به فينسخه لا في وقت آخر ولا على لسان نبي آخر ، وقال هؤلاء : بل الأحبار والقسيسون يغيرون ما شاؤوا ويحرّمون ما رأوا ، ومن أذنب ذنباً وضعوا عليه ما رأوا من العبادات وغفروا له . ومنهم من يزعم أنه ينفخ في المرأة من روح القدس ، فيجعل البخور قرباناً . وقال أولئك : حرم علينا أشياء كثيرة . وقال هؤلاء ما بين البقة والفيل حلال كل ما شئت ودع ما شئت . وقال أولئك : النجاسات مغلظة ، حتى إن الحائض لا يقعد معها ولا يؤكل معها . وهؤلاء يقولون ما عليك شيء نجس ولا يأمرؤن بختان ولا غسل من جنابة ولا إزالة نجاسة ، مع أن المسيح والحواريين كانوا على شريعة التوراة .

ثم إن الصلاة إلى المشرق لم يأمر بها المسيح ولا الحواريون ، وإنما ابتدعها قسطنطين أو غيره . وكذلك الصليب إنما ابتدعه

قسطنطين برأيه وبمنام زعم أنه رآه • وأما المسيح والحواريون فلم يأمرُوا بشيء من ذلك •

والدين الذي يتقرب العباد به إلى الله لا بد أن يكون الله أمر به وشرعه على السنة رسله وأنبيائه ، وإلا فالبدع كلها ضلالة ، وما عبدت الأوثان إلا بالبدع ، وكذلك إدخال الألحان في الصلوات لم يأمر بها المسيح ولا الحواريون •

وبالجملة : فعمامة أنواع العبادات والأعياد التي هم عليها لم ينزل بها الله كتاباً ولا بعث بها رسولاً ، لكن فيهم رافة ورحمة • وهذا من دين الله بخلاف الأولين فإن فيهم قسوة ومقتاً وهذا مما حرمه الله تعالى ، لكن الأولين لهم تمييز وعقل مع العناد والكبر ، والآخرون فيهم ضلال عن الحق وجهل بطريق الله ...

وقد آمن جماعات من علماء أهل الكتاب قديماً وحديثاً ، وهاجروا إلى الله ورسوله ، وصنفوا في كتب الله من دلالات نبوة النبي خاتم المرسلين ، وما في التوراة والزبور والإنجيل من مواضع لم يدبروها ، وكذلك الحواريون • فلما اختلف الأحزاب من بينهم هدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، فبعث النبي الذي بشر به المسيح ومن قبله من الأنبياء ، داعياً إلى ملة إبراهيم ودين المرسلين قبله وبعده ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، وإخلاص الدين كله لله ، وطهر الأرض من عبادة الأوثان ، ونزه الدين عن الشرك دقه وجله ، بعد ما كانت الأصنام تعبد في أرض الشام وغيرها في دولة بني إسرائيل ودولة الذين قالوا إنا

نصارى ، وأمر بالإيمان بجميع كتب الله المنزلة كالطورا والإنجيل والزبور والفرقان وبجميع أنبياء الله من آدم إلى محمد .

قال الله تعالى : (وقالوا كونوا هوداً او نصارى تهتدوا ، قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين . قولوا آمنا بالله وما انزل إلينا وما انزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والاسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم ، لا نفرق بين احد منهم ، ونحن له مسلمون . فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكم الله وهو السميع العليم . صيغة الله ، ومن احسن من الله صيغة ونحن له عابدون) (١) .

وامر الله ذلك الرسول بدعوة الخلق إلى توحيده بالعدل فقال تعالى : (قل يا اهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم : ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا : اشهدوا بانا مسلمون) (٢) . وقال تعالى : (وما كان لبشر ان يكلمه الله إلا وحياً او من وراء حجاب) (٣) . وقال تعالى : (ما كان لبشر ان يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس : كونوا عباداً لي من دون الله ، ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون . ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً ، اياهم بال كفر بعد إذ انتم مسلمون) (٤) .

(١) سورة البقرة - الآيات : ١٣٥ - ١٣٨ .

(٢) سورة آل عمران - الآية ٦٤ .

(٣) سورة الشورى - الآية ٥١ .

(٤) سورة آل عمران - الآيتان : ٧٩ ، ٨٠ .

وأمره أن تكون صلاته وحجه إلى بيت الله الحرام الذي بناه خليفه إبراهيم أبو الأنبياء وإمام الحنفاء ، وجعل أمته وسطاً ، فلم يغفلوا في الأنبياء كغفلوا من عدلهم بالله^(١) ، وجعل فيهم شيئاً من الإلهية وعبدتهم وجعلهم شفعاء ، ولم يجفوا جفاء من آذاهم واستخف بحرماتهم وأعرض عن طاعتهم ، بل عزروا الأنبياء أي عظمهم ونصروهم وآمنوا بما جاؤوا به وأطاعوهم واتبعوهم واثموا بهم وأحبوهم وأجلوهم ، ولم يعبدوا إلا الله ، فلم يتكلموا إلا عليه ، ولم يستعينوا إلا به مخلصين له الدين حنفاء .

وكذلك في الشرائع قالوا : ما أمرنا الله به أطعناه وما نهانا عنه اتقنا ، وإذا نهانا عما كان أحله كما نهى بني إسرائيل عما كان أباحه ليعقوب ، أو أباح لنا ما كان حراماً كما أباح المسيح بعض الذي حرم الله على بني إسرائيل سمعنا وأطعنا .

وأما غير رسل الله وأنبيائه فليس لهم أن يبدلوا دين الله ، ولا يتدعوا في الدين ما لم يأذن به الله . والرسول إنما قالوا تبليغاً عن الله ، فإنه سبحانه له الخلق والأمر ، فكما لا يخلق غيره لا يأمر غيره :

(إن الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) (٢) .

(١) ويقصد أن الأمم السابقة سوت أنبياءها بالله .

(٢) سورة يوسف - الآية ٤٠ .

وتوسطت هذه الأمة في الطهارة والنجاسة ، وفي الحلال والحرام ، وفي الأخلاق ، ولم يجردوا الشدة كما فعله الأولون ، ولم يجردوا الرأفة كما فعله الآخرون . بل عاملوا أعداء الله بالشدة ، وعاملوا أولياء الله بالرأفة والرحمة ، وقالوا في المسيح ما قاله سبحانه وتعالى وما قاله المسيح والحواريون ، لا ما ابتدعه الغالون والجافون .

وقد أخبر الحواريون عن خاتم المرسلين أنه يبعث من أرض اليمن وأنه يبعث بقضيب الأدب وهو السيف . وأخبر المسيح أنه يجيء بالبينات والتأويل ، وأن المسيح جاء بالأمثال ، وهذا باب يطول شرحه ...

وإنما نبه الداعي لعظيم ملته وأهله ، لما بلغني ما عنده من الديانة والفضل ومحبة العلم وطلب المذاكرة ، ورأيت الشيخ أبا العباس المقدسي شاكرًا من الملك من رفقته ولطفه وإقباله عليه وشاكرًا من القسيسين ونحوهم .

ونحن قوم نحب الخير لكل أحد ، ونحب أن يجمع الله لكم خير الدنيا والآخرة ، فإن أعظم ما عبد الله به نصيحة خلقه ، وبذلك بعث الله الأنبياء والمرسلين ، ولا نصيحة أعظم من النصيحة فيما بين العبد وبين ربه ، فإنه لا بد للعبد من لقاء الله ، ولا بد أن الله يحاسب عبده كما قال تعالى :

(فلنسالن الذين أرسل إليهم ولنسالن المرسلين) (١) .

(١) سورة الاعراف - الآية ٦ .

وأما الدنيا فأمرها حقير ، وكبيرها صغير ، وغاية أمرها يعود
إلى الرياسة والمال . وغاية ذي الرياسة أن يكون كفرعون الذي
أنقرقه الله في اليم انتقاماً منه ، وغاية ذي المال أن يكون كقارون
الذي خسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة لما
آذى نبي الله « موسى » .

وهذه وصايا المسيح ومن قبله ومن بعده من المرسلين كلها
تأمر بعبادة الله ، والتجرد للدار الآخرة ، والإعراض عن زهرة
الحياة الدنيا . ولما كان أمر الدنيا خسيساً رأيت أن أعظم ما يهدى
لعظيم قومه المفاتحة في العلم والدين بالمذاكرة فيما يقرب إلى الله،
والكلام في الفروع مبني على الأصول ، وأتم تعلمون أن دين الله
لا يكون بهوى النفس ولا بعادات الآباء وأهل المدينة ، وإنما ينظر
العاقل فيما جاءت به الرسل وفيما اتفق الناس عليه وما اختلفوا
فيه ، ويعامل الله تعالى بينه وبين الله تعالى بالاعتقاد الصحيح
والعمل الصالح ، وإن كان لا يمكن الانسان أن يظهر كل ما في
نفسه لكل أحد فيتنفع هو بذلك القدر .

وإن رأيت من الملك رغبة في العلم والخير كاتبته وجاوبته
عن مسائل يسألها ، وقد كان خطر لي أن أجيء إلى قبرص لمصالح
في الدين والدنيا ، لكن إذا رأيت من الملك ما فيه رضى الله
ورسوله عاملته بما يقتضيه عمله ، فإن الملك وقومه يعلمون أن الله
قد أظهر من معجزات رسله عامة ، ومحمد خاصة ما أيد به دينه ،
وأذل الكفار والمنافقين .

ولما قدم مقدم المغول « غازان » وأتباعه إلى دمشق ، وكان قد انتسب إلى الإسلام ، لكن لم يرض الله ورسوله والمؤمنون بما فعلوه ، حيث لم يلتزموا دين الله ، وقد اجتمعت به وبأمرائه وجري لي معهم فصول يطول شرحها لا بد أن تكون قد بلغت الملك ، فأذله الله وجنوده لنا حتى بقينا نضربهم بأيدينا ونصرخ فيهم بأصواتنا ، وكان معهم « صاحب سيس »^(١) مثل أصغر غلام يكون ، حتى كان بعض المؤذنين الذين معنا يصرخ عليه ويشتمه وهو لا يجترئ أن يجاوبه حتى إن وزراء « غازان » ذكروا ما ينم عليه من فساد النية له ، وكنت حاضراً لما جاءت رسلهم إلى ناحية الساحل ، وأخبرني التتار بالأمر الذي أراد « صاحب سيس » أن يدخل بينكم وبينه فيه حيث متاكم بالغرور ، وكان التتار من أعظم الناس شتيمة لصاحب « سيس » وإهانة له ، ومع هذا فإننا كنا نعامل أهل ملتكم بالإحسان إليهم والذب عنهم .

وقد عرف النصارى كلهم أنني لما خاطبت التتار في إطلاق الأسرى وأطلقهم « غازان » و « قطلو شاه » وخاطبت مولاي فيهم فسمح بإطلاق المسلمين ، قال لي : لكن معنا نصارى أخذناهم

(١) مدينة شمال انطاكية وطرسوس أصبحت تحت حكم النصارى منذ القرن الرابع الهجري .
انظر اطلس التاريخ الاسلامي ، تأليف : هاري هازارد ، ترجمة ابراهيم زكي .

من القدس فهؤلاء لا يطلقون . فقلت له : بل جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا فإتأ تفكهم ولا ندع أسيراً ، لا من أهل الملة ولا من أهل الذمة . وأطلقنا من النصارى من شاء الله فهذا عملنا وإحساننا والجزاء على الله .

وكذلك السبي الذي بأيدينا من النصارى يعلم كل أحد إحساننا ورحمتنا ورأفتنا بهم ، كما أوصانا خاتم المرسلين حيث قال في آخر حياته :

« الصلاة وما ملكت أيمانكم » وقال الله تعالى (ويطعمون

الطعام على حُبّه مسكيناً ويتيمّاً وأسيراً) (١) .

ومع خضوع التتار لهذه الملة واتسابهم إلى هذه الملة فلم نخادعهم ولم ننافقهم ، بل بينّا لهم ما هم عليه من الفساد والخروج عن الإسلام الموجب لجهادهم ، وأن جنود الله المؤيدة وعساكره المنصورة المستقرة بالديار الشامية والمصرية مازالت منصورة على من ناوأها ، مظفرة على من عاداها . وفي هذه المدة لما شاع عند العامة أن التتار مسلمون أمسك العسكر عن قتالهم فقتل منهم بضعة عشر ألفاً ولم يقتل من المسلمين مائتان ، فلما انصرف العسكر إلى مصر وبلغه ما عليه هذه الطائفة الملعونة من الفساد وعدم الدين خرجت جنود الله وللأرض منها وئيد ، قد ملأت السهل والجبل في كثرة وقوة وعدة وإيمان وصدق قد بهرت

(١) سورة الانسان - الآية ٨ .

العقول والألباب محفوفة بملائكة الله التي ما زال يمد بها الأمة الحنيفة المخلصة لبارئها ، فانهزم العدو بين أيديها ولم يقف لمقابلتها ثم أقبل العدو ثانياً فأرسل عليه من العذاب ما أهلك النفوس والخيال ، وانصرف خاسئاً وهو حسير ، وصدق الله وعده ونصر عبده . وهو الآن في البلاء الشديد والتعكيس العظيم والبلاء الذي أحاط به . والإسلام في عز متزايد ، وخير مترافد ، فإن النبي ﷺ قد قال :

« إن الله يبعث لهذه الأمة في رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها » .

وهذا الدين في إقبال وتجديد ، وأنا ناصح للملك وأصحابه والله الذي لا إله إلا هو الذي أنزل التوراة والإنجيل والفرقان .

ويعلم الملك أن وفد نجران كانوا نصارى كلهم فيهم الأسقف وغيره لما قدموا على النبي ﷺ ودعاهم إلى الله ورسوله وإلى الإسلام خاطبوه في أمر المسيح وناظروه فلما قامت عليهم الحجة جعلوا يراوغون ، فأمر الله نبيه أن يدعوهم إلى المباهلة كما قال :

(فمن حاجتك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبنائكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين) (١) .

(١) سورة آل عمران - الآية ٦١ .

فلما ذكر النبي ﷺ ذلك استشوروا بينهم ، فقالوا :
« تعلمون أنه نبي وأنه ما باهل أحد نبياً فأفلح » ، فأدوا إليه الجزية ،
ودخلوا في الذمة واستغفروا من المباهلة •

وكذلك بعث النبي ﷺ كتابه إلى قيصر الذي كان ملك
النصارى بالشام والبحر إلى قسطنطينية وغيرها ، وكان ملكاً
فاضلاً ، فلما قرأ كتابه وسأل عن علامته عرف أنه النبي الذي بشر
به المسيح وهو الذي كان وعد الله به إبراهيم ابنه إسماعيل ،
وجعل يدعو قومه النصارى إلى متابعتة وأكرم كتابه وقبّله
ووضعه على عينيه • وقال : « وددت أني أخلص إليه حتى أغسل
عن قدميه ، ولولا ما أنا فيه من الملك لذهبت إليه » •

وأما النجاشي ملك الحبشة النصراني فإنه لما بلغه خبر النبي
ﷺ من أصحابه الذين هاجروا إليه آمن به وصدقه ، وبعث
إليه ابنه وأصحابه مهاجرين وصلى النبي ﷺ عليه لما مات ، ولما
سمع سورة (كهيعص) بكى ، ولما أخبروه عما يقولون في
المسيح قال : « والله ما يزيد عيسى على هذا مثل هذا العود » ،
وقال : « إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة » •

وكانت سيرة النبي ﷺ أن من آمن بالله وملائكته وكتبه
ورسله من النصارى صار من أمته ، له ما لهم وعليه ما عليهم ،
وكان له أجران : أجر على إيمانه بالمسيح ، وأجر على إيمانه

بمحمد • ومن لم يؤمن به من الأمم فإن الله أمر بقتاله كما قال في كتابه :

(قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) (١) ...

ثم المسيح صلوات الله عليه لم يأمر بجهاد ، لا سيما بجهاد الأمة الحنيفة ولا الحواريون بعده • فيا أيها الملك كيف تستحل سفك الدماء وسبي الحرير وأخذ الأموال بغير حجة من الله ورسله •

ثم أما يعلم الملك أن بديارنا من النصارى أهل الذمة والأمان مالا يحصي عددهم إلا الله ، ومعاملتنا فيهم معروفة ، فكيف يعاملون أسرى المسلمين بهذه المعاملات التي لا يرضى بها ذو مروءة ولا ذو دين ؟ لست أقول عن الملك وأهل بيته ولا إخوته ، فإن « أبا العباس » شاكراً للملك ولأهل بيته كثيراً ، معترف بما فعلوه معه من الخير ، وإنما أقول عن عموم الرعية ، أليس الأسرى في رعية الملك ؟! أليست عهود المسيح وسائر الأنبياء توصي بالبر والإحسان فأين ذلك ؟!

ثم إن كثيراً منهم إنما أخذوا غدرًا والغدر حرام في جميع الملل والشرائع والسياسات • فكيف تستحلون أن تستولوا على

(١) سورة التوبة - الآية ٢٩ •

من أخذ غدرًا • أفتأمنون مع هذا أن يقابلکم المسلمون ببعض هذا وتكونون مغدورين والله ناصرهم ومعينهم • لا سيما في هذه الأوقات والأمة قد امتدت للجهاد ، واستعدت للجلاد ، ورغب الصالحون وأولياء الرحمن في طاعته • وقد تولى الثغور الساحلية أمراء ذوو بأس شديد وقد ظهر بعض أثرهم وهم في ازدياد ••• وفي المسلمين الصالحون الذين لا يرد الله دعواتهم ، ولا يخيب طلباتهم ، الذين يغضب الرب لغضبهم ويرضى لرضاهم • وهؤلاء التتار مع كثرتهم واتسابهم إلى المسلمين لما غضب المسلمون عليهم أحاط بهم من البلاء ما يعظم عن الوصف ، فكيف يحسن أيها الملك بقوم يجاورون المسلمين من أكثر الجهات أن يعاملوهم هذه المعاملة التي لا يرضاها عاقل لا مسلم ولا معاهد •

هذا وأنت تعلم أن المسلمين لا ذنب لهم أصلاً ، بل هم المحمودون على ما فعلوه ، فإن الذي أطبقت العقلاء على الإقرار بفضلهم هو دينهم ، حتى الفلاسفة أجمعوا على أنه لم يطرُق العالم دين أفضل من هذا الدين ، فقد قامت البراهين على وجوب متابعتها •

ثم هذه البلاد ما زالت بأيديهم ، الساحل بل وقبرص أيضاً ما أخذت منهم إلا من أقل من ثلاثمائة سنة ، وقد وعدهم النبي ﷺ أنهم لا يزالون ظاهرين إلى يوم القيامة ، فما يؤمن الملك أن هؤلاء الأسرى المظلومين ببلدته ينتقم لهم رب العباد والبلاد

كما ينتقم لغيرهم ، وما يؤمنه أن تأخذ المسلمين حمية إسلامهم
فينالوا منها ما نالوا من غيرها ، ونحن إذا رأينا من الملك وأصحابه
ما يصلح عاملناهم بالحسنى، وإلا فمن بُغي عليه لينصرته الله .

وأنت تعلم أن ذلك من أيسر الأمور على المسلمين ، وأنا
ما غرضي الساعة إلا مخاطبتكم بالتي هي أحسن ، والمعاونة على
النظر في العلم واتباع الحق وفعل ما يجب ، فإن كان عند الملك
من يثق بعقله ودينه فليبحث معه عن أصول العلم وحقائق الأديان
ولا يرضى أن يكون من هؤلاء النصارى المقلدين الذين
لا يسمعون ولا يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً .

وأصل ذلك أن تستعين بالله وتسأله الهداية وتقول : اللهم
أرني الحق حقاً وأعطني على اتباعه ، وأرني الباطل باطلاً وأعني
على اجتنابه ، ولا تجعله مستبهاً عليّ فأتبع الهوى فأضل . وقل :
اللهم ربّ جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم
الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ،
اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى
صراط مستقيم .

والكتاب لا يحتل البسط أكثر من هذا ، لكن أنا ما أريد
للملك إلا ما ينفعه في الدنيا والآخرة وهما شيئان : أحدهما
له خاصة ، وهو معرفته بالعلم والدين ، وانكشاف الحق وزوال
الشبهة وعبادة الله كما أمر ، فهذا خير له من ملك الدنيا بحذافيرها ،

وهو الذي بعث به المسيح وعلمه الحواريين . الثاني : له وللمسلمين ، وهو مساعدته للأسرى الذين في بلاده ، وإحسانه إليهم ، وأمر رعيته بالإحسان إليهم والمعاونة لنا على خلاصهم ، فإن في الإساءة إليهم دركاً على الملك في دينه ودين الله تعالى ، ودركاً من جهة المسلمين ، وفي المعاونة على خلاصهم حسنة له في دينه ودين الله تعالى وعند المسلمين ، وكان المسيح أعظم الناس توصية بذلك .

ومن العجب كل العجب أن يأسر النصارى قوماً غدرأ أو غير غدر ولم يقاتلوهم ، والمسيح يقول « من لطمك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر ، ومن أخذ رداءك فأعطه قميصك » وكلما كثرت الأسرى عندكم كان أعظم لغضب الله وغضب عباده المسلمين فكيف يمكن السكوت على أسرى المسلمين في قبرص ، سيما وعامة هؤلاء الأسرى قوم فقراء وضعفاء ليس لهم من يسعى فيهم . وهذا « أبو العباس » مع أنه من عبّاد المسلمين وله عبادة وفقر وفيه مشيخة ومع هذا فما كاد يحصل له فداؤه إلا بالشدة . ودين الإسلام يأمرنا أن نعين الفقير والضعيف ، فالملك أحق أن يساعد على ذلك من وجوه كثيرة ، لا سيما والمسيح يوصي بذلك في الإنجيل ويأمر بالرحمة العامة والخير الشامل كالشمس والمطر . والملك وأصحابه إذا عاونونا على تخليص الأسرى والإحسان إليهم ، كان الحظ الأوفر لهم في ذلك في الدنيا والآخرة . أما في الآخرة فإن الله يثيب على ذلك ويأجر عليه وهذا مما لا ريب فيه

عند العلماء المسيحيين الذين لا يتبعون الهوى • بل كل من اتقى الله وأنصف علم أنهم أسروا بغير حق ولا سيما من أخذ غدراً ، والله تعالى لم يأمر المسيح ولا أحداً من الحواريين ولا من اتبع المسيح على دينه ، لا بأسر أهل ملة إبراهيم ولا بقتلهم ، وكيف وعامة النصارى يقرون بأن محمداً رسول الأُميين فكيف يجوز أن يقاتل أهل دين اتبعوا رسولهم •••

وما زال في النصارى من الملوك والقسيسين والرهبان والعامّة من له مزية على غيره في المعرفة والدين ، فيعرف بعض الحق وينقاد لكثير منه ، ويعرف من قدر الإسلام وأهله ما يجهله غيره فيعاملهم معاملة تكون نافعة له في الدنيا والآخرة • ثم في فكاك الأسير وثواب العتق من كلام الأنبياء والصديقين ما هو معروف لمن طلبه ، فمهما عمل الملك معهم وجد ثمرته •••

ثم إن في بلادهم من النصارى أضعاف ما عندكم من المسلمين ، فإن فيهم من رؤوس النصارى من ليس في البحر مثلهم إلا قليل ، وأما أسراء المسلمين فليس فيهم من يحتاج إليه المسلمون ولا من ينتفعون به ، وإنما نسعى في تخليصهم لأجل الله تعالى رحمة لهم وتقرباً إليه يوم يجزي الله المصدقين ولا يضيع أجر المحسنين •

و « أبو العباس » حامل هذا الكتاب قد بث محاسن الملك وإخوته عندنا واستعطف قلوبنا إليه فلذلك كاتبت الملك لما بلغتني رغبته في الخير وميله إلى العلم والدين ، وأنا من نواب المسيح وسائر الأنبياء في مناصحة الملك وأصحابه ، وطلب الخير

لهم : فإن أمة محمد خير أمة أخرجت للناس ، يريدون للخلق خير الدنيا والآخرة ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويدعونهم إلى الله ، ويعينونهم على مصالح دينهم ودنياهم ، وإن كان الملك قد بلغه بعض الأخبار التي فيها طعن على بعضهم أو طعن على دينهم ، فإما أن يكون الخبر كاذباً أو ما فهم التأويل وكيف صورة الحال . وإن كان صادقاً عن بعضهم بنوع من المعاصي والفواحش والظلم ، فهذا لا بد منه في كل أمة بل الذي يوجد في المسلمين من الشر أقل مما في غيرهم بكثير ، والذي فيهم من الخير لا يوجد مثله في غيرهم .

والملك وكل عاقل يعرف أن أكثر النصارى خارجون عن وصايا المسيح والحواريين ورسائل « بولص » وغيره من القديسين . وإن كان أكثر ما معهم من النصرانية شرب الخمر وأكل الخنزير وتعظيم الصليب ، ونواميس مبتدعة ما أنزل الله بها من سلطان ، وأن بعضهم يستحل بعض ما حرّمته الشريعة النصرانية . هذا فيما يقرون به . وأما مخالفتهم لما لا يقرون به فكلهم داخل في ذلك بل قد ثبت عندنا عن الصادق المصدوق رسول الله ﷺ أن المسيح عيسى بن مريم ينزل عندنا بالمنارة البيضاء في دمشق واضعاً يده على منكبي ملكين فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ولا يقبل من أحد إلا الإسلام ، ويقتل مسيح الضلالة الأعور الدجال الذي يتبعه اليهود ، ويُسَلِّط المسلمون على اليهود حتى يقول الشجر والحجر يا مسلم هذا يهودي ورأيي فاقتله ، ويتنقم الله للمسيح بن مريم مسيح الهدى من اليهود ما آذوه وكذبوه لما بعث إليهم . . .

والذي أنصح به أن كل من أسلف إلى المسلمين خيراً ومالاً إليهم ، كانت عاقبته معهم حسنة بحسب ما فعله من الخير ، فإن الله يقول :

(فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) (١) •

والذي أختتم به الكتاب ، الوصية بالشيخ « أبي العباس » وبغيره من الأسرى • والمساعدة لهم ، والرفق بمن عندهم من أهل القرآن والامتناع من تغيير دين واحد منهم • وسوف يرى الملك عاقبة ذلك كله ، ونحن نجزي الملك على ذلك بأضعاف ما في نفسه • والله يعلم أنني قاصد للملك الخير لأن الله تعالى أمرنا بذلك ، وشرع لنا أن نريد الخير لكل أحد ونعطف على خلق الله، وندعوهم إلى الله وإلى دينه وندفع عنهم شياطين الإنس والجن •

والله المسؤول أن يعين الملك على مصلحته التي هي عند الله المصلحة • وأن يخير له من الأقوال ما هو خير له عند الله ويختتم له بخاتمة خير • والحمد لله رب العالمين وصلواته على أنبيائه المرسلين ولا سيما محمد خاتم النبيين والمرسلين ، والسلام عليهم أجمعين •

(١) سورة الزلزلة – الآيتان ٧ ، ٨ •

يرجع كلام بعض الناس بسوء عن ابن تيمية وإيذائهم له وتاليب الحكام عليه ، إلى حسدهم له . وهذا من الأسباب التي جعلت ابن تيمية يتحدث عن الحسد كمرض من أمراض القلب . يقول رحمه الله تعالى :

قال الله تعالى عن المنافقين :

« في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً » (١) وقال تعالى : « ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً » (٢) .

ومرض البدن خلاف صحته وصلاحه ، وكذلك مرض القلب هو نوع فساد يحصل له إما بالشبهات أو الشهوات ، كما فسر مجاهد وقتادة قوله : (في قلوبهم مرض) : أي شك . وتارة يفسر بشهوة الزنا ، كما فسر به قوله تعالى : « فيطمع الذي في قلبه مرض » (٣) .

ومرض القلب : ألم يحصل في القلب كالغيظ من عدو استولى عليك .

(١) سورة البقرة : الآية ١٠ .

(٢) سورة الاسراء : الآية ٨٢ .

(٣) سورة الاحزاب : الآية ٣٢ .

قال تعالى : « ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم » (١) .

وكذلك الشك والجهل يؤلم القلب . قال النبي ﷺ :
« هلاّ سالوا إذا لم يعلموا ، فإنما شفاء العيّ السؤال » .

ويقال للعالم الذي أجاب بما يبيّن الحق : قد شفاني
بالجواب .

والقلب يحتاج أن يتربى فينمو ويزيد حتى يكمل ويصلح ،
كما يحتاج البدن أن يربى بالأغذية المصلحة له ، والصدقة لما كانت
تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار ، صار القلب يزكو بها .
قال تعالى :

« خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » (٢) .

وكذلك ترك الفواحش يزكو بها القلب . قال تعالى :
« ولولا فضل الله عليكم ورحمته ، ما زكى منكم أحد أبداً » (٣)
وقال : « وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة » (٤) .
وهي التوحيد والإيمان الذي به يزكو القلب .

(١) سورة التوبة : الآية ١٤ .

(٢) سورة التوبة : الآية ١٠٣ .

(٣) سورة النور : الآية ٢١ .

(٤) سورة فصلت : الآيتان ٦ ، ٧ .

ولهذا قال يحيى بن عمار العلوم خمسة : فعلم هو حياة الدنيا وهو علم التوحيد . وعلم هو غذاء الدين وهو علم التذكر بمعاني القرآن والحديث . وعلم هو دواء الدين وهو علم الفتوى إذا نزل بالعبد نازلة احتاج إلى من يشفيه منها . وعلم هو داء الدين وهو الكلام المحدث . وعلم هو هلاك الدين وهو علم السحر ونحوه .

وقال بعض السلف : « إن للحسنة نوراً في القلب ، وقوة في البدن ، وضياء في الوجه ، وسعة في الرزق ، ومحبة في قلوب الخلق . وإن للسيئة لظلمة في القلب ، وسواداً في الوجه ، ووهناً في البدن ، ونقصاً في الرزق ، وبغضاً في قلوب الخلق » . وأصل صلاح القلب هو حياته واستنارته . قال تعالى :

« أَوْ مَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ، كَمَنْ مِثْلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا » (١) .

وضرب الله مثلاً لنور الايمان في قلب المؤمنين :

« الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار . نور على نور » (٢) .

(١) سورة الأنعام : الآية ١٢٢ .

(٢) سورة النور : الآية ٣٥ .

وفي الدعاء الماثور : (اجعل القرآن ربيع قلوبنا ، ونور صدورنا) .

والربيع : هو المطر الذي ينزل من السماء فينبت به النبات ، والقلت الحي المنور ، فإنه لما فيه من النور يسمع ويبصر ويعقل . والقلب الميت فإنه لا يسمع ولا يبصر وقالوا :

« قلوبنا في اكنة مما تدعونا إليه ، وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب » (١) .

والقلب الحي يكون صاحبه فيه حياء يمنعه من القبائح ، والحياء مشتق من الحياة . ولهذا قال ﷺ : « الحياء من الإيمان » .

والميت الذي لاحياة فيه يسمى وقحاً . والوقاحة : الصلابة وهو اليبس المخالف للرطوبة . فإذا كان وقحاً يابساً صليب الوجه ، لم يكن في قلبه حياة توجب حيائه .

ومن أمراض القلوب (الحسد) : وهو البغض والكراهة لما يراه من حسن حال المحسود . وهو نوعان :

أحدهما : كراهية للنعمة عليه مطلقاً ، فهذا هو الحسد المذموم ، وإذا أبغض ذلك فإنه يتألم فيكون ذلك مرضاً في قلبه . والنوع الثاني : أن يكره فضل ذلك الشخص عليه ، فيجب أن يكون مثله أو أفضل منه . فهذا حسد وهو الذي سموه

(١) سورة فصلت : الآية ٥ .

الغبطة ، وقد سماه النبي ﷺ حسداً في الحديث المتفق عليه من حديث ابن مسعود وابن عمر رضي الله عنهما أنه قال :

« لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها ، ورجل آتاه الله مالاً وسلطه على هلكته في الحق » . ولفظ ابن عمر : « رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل والنهار ، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفق منه في الحق آناء الليل والنهار » (١)

فهذا الحسد الذي نهى عنه النبي ﷺ إلا في موضعين هو الذي سماه أولئك الغبطة . وهو أن يجب مثل حال الغير ويكره أن يفضل عليه .

وأما من أحب أن ينعم الله عليه مع عدم التفاته إلى أحوال الناس ، فهذا ليس عنده من الحسد شيء . ولهذا يتلى غالب الناس بهذا القسم الثاني . وقد تسمى المنافسة كما يكره المستبقان كل منهما أن يسبقه الآخر . والتنافس ليس مذموماً مطلقاً ؛ بل هو محمود في الخير . قال تعالى :

« وفي ذلك فليتنافس المتنافسون » (٢) .

فأمر المنافس أن ينافس في هذا النعيم ، لا ينافس في نعيم الدنيا الزائل ، وهذا موافق لحديث النبي ﷺ ، فإنه نهى عن الحسد إلا فيمن أوتي العلم فهو يعمل به ويعلمه ، ومن أوتي

(١) رواه البخاري .

(٢) سورة المطففين : الآية ٢٦ .

المال فهو ينفقه . ولم يذكر المجاهد لأن النفوس لا تحسد من هو في تعب عظيم ، وإن كان المجاهد في سبيل الله أفضل من الذي ينفق المال . وكذلك لم يذكر النبي ﷺ المصلي والصائم والحاج ؛ لأن هذه الأعمال لا يحصل منها في العادة نفع الناس الذي يعظمون به الشخص ويسودونه ، ما يحصل بالتعليم والإنفاق .

والحسد في الأصل : إنما يقع لما يحصل للغير من السؤدد والرياسة . ولهذا يوجد بين أهل العلم الذين لهم أتباع ، من الحسد مالا يوجد فيمن ليس كذلك . وكذلك فيمن له أتباع بسبب إنفاق ماله ، فهذا ينفع الناس بقوت القلوب ، وهذا ينفعهم بقوت الأبدان .

ولهذا ضرب الله سبحانه مثلين : مثلاً بهذا ، ومثلاً بهذا فقال :

« ضرب الله مثلاً : عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ، ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سراً وجهرأ . هل يستوون؟! الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون . وضرب الله مثلاً : رجلين أحدهما ابكم لا يقدر على شيء وهو كلٌّ على مولاه أينما يوجهه لا يات بخير ، هل يستوي هو ومن يامر بالعدل وهو على صراط مستقيم؟! » (١) .

والمثلان ضربهما الله سبحانه لنفسه المقدسة ولما يُعبد من دونه . فإن الأوثان لا تقدر لا على عمل ينفع ولا على كلام ينفع .

(١) سورة النحل : الآيتان ٧٥ ، ٧٦ .

ولهذا كان الناس يعظمون دار العباس ، فقد كان عبد الله يعلم الناس وأخوه يطعم الناس^(١) ، فكانوا يُعَظِّمُونَ على ذلك . ورأى « معاوية » الناس يسألون « ابن عمر » عن المناسك وهو يفتيهم فقال : « هذا والله الشرف » أو نحو ذلك .

هذا وعمر بن الخطاب رضي الله عنه نافس أبا بكر رضي الله عنه الإتفاق كما ثبت في الصحيح عن عمر بن الخطاب قال :

« امرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق فوافق ذلك مالا عندي فقلت : اليوم اسبق أبا بكر إن سبقته يوماً . قال : فجئت بنصف مالي ، قال : فقال لي رسول الله ﷺ ما أبقيت لأهلك قلت : مثله . واتى أبو بكر رضي الله عنه بكل ما عنده ، فثقال له رسول الله ﷺ : ما أبقيت لأهلك قال : أبقيت لهم الله ورسوله ، فقلت : لا أسابقك إلى شيء أبداً » .

فكان ما فعله عمر من المنافسة والغبطة المباحة ، لكن حال الصديق رضي الله عنه أفضل وهو أنه خال من المنافسة مطلقاً لا ينظر إلى حال غيره .

وكذلك كان في الصحابة أبو عبيدة بن الجراح ونحوه كانوا سالمين من جميع هذه الأمور ، فكانوا أرفع درجة ممن عنده

(١) هو عبيد الله بن العباس وكان أصغر من أخيه عبد الله بسنة . استعمله علي على اليمن ، ومات رضي الله عنه بالمدينة سنة ٨٧ هـ وكان سخياً جواداً ينحر كل يوم جزوراً . انظر : الزركلي ، الأعلام ، جزء ٤ ، ص ٣٤٩ .

منافسة وغبطة ، وإن كان ذلك مباحاً • ولهذا استحق «أبو عبيدة» رضي الله عنه أن يكون أمين هذه الأمة ، فإن المؤمن إذا لم يكن في نفسه مزاحمة على شيء مما أوْتَمَن عليه ، كان أحق بالأمانة ممن يخاف مزاحمته •

وفي الحديث الذي رواه الامام أحمد في مسنده عن أنس رضي الله عنه قال : « كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فقال : يطلع عليكم الآن من هذا الفج رجل من أهل الجنة ، قال فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوء ، قد علّق نعليه في يده الشمال فسلم • فلما كان الغد قال النبي ﷺ مثل ذلك ، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله • فلما كان اليوم الثالث قال النبي ﷺ مقالته ، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله ، فلما قام النبي ﷺ أتبعه عبد الله ابن عمرو بن العاص رضي الله عنه فقال : إني لآحييتُ أبي فاقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثاً ، فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي الثلاث فعلت ، قال : نعم ، قال أنس رضي الله عنه : فكان عبد الله يحدث أنه بات عنده ثلاث ليال فلم يره يقوم من الليل شيئاً ، غير أنه إذا تعار انقلب على فراشه ذكر الله عز وجل وكبر حتى يقوم إلى صلاة الفجر ، فقال عبد الله : غير أنني لم أسمعه يقول إلا خيراً •

فلما فرغنا من الثلاث وكنت أن احقر عمله قلت : يا عبد الله لم يكن بيني وبين والدي غضب ولا هجرة ، ولكن سمعت رسول الله

ﷺ يقول ثلاث مرات يطلع عليكم رجل من اهل الجنة فطلعت انت
 الثلاث مرات فاردت ان آوي إليك لانظر ماعملك ، فاقندي بذلك ،
 فلم ارك تعمل كثير عمل . فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ ؟
 قال : ما هو إلا ما رأيت غير أنني لا أجد على أحد من المسلمين في
 نفسي غشاً ولا حسداً على خير أعطاه الله إياه . قال عبد الله : هذه
 التي بلغت بك وهي انتي لا نطيق » .

وبهذا أثنى الله تعالى على الأنصار فقال :

« ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على
 أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » (١) .

أي مما أوتي اخوانهم المهاجرون . قال المفسرون : لا يجدون
 في صدورهم حاجة : أي حسداً وغيظاً مما أوتي المهاجرون .

وكان بين الأوس والخزرج منافسة على الدين ، فكان هؤلاء
 إذا فعلوا ما يفضلون به عند الله ورسوله أحب الآخرون أن يفعلوا
 نظير ذلك .

وأما الحسد المذموم كله فقد قال تعالى في حق اليهود :
 « ودَّ كثير من اهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً
 حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق » (٢) .

ثم هذا الحسد ، إن عمل صاحبه بموجه كان ظالماً معتدياً
 مستحقاً للعقوبة إلا أن يتوب . وكان المحسود مظلوماً مأموراً

(١) سورة الحشر : الآية ٩ .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٠٩ .

بالصبر والتقوى • فيصبر على أذى الحاسد ويعفو ويصفح عنه •
وقد ابتلي « يوسف » بحسد إخوته له ، ثم إنهم ظلموه بتكلمهم في
قتله وإلقائه في الحب ويبيعه رقيقاً لمن ذهب به إلى بلاد الكفر فصار
مملوكاً لقوم كفار ...

والمقصود أن الحسد مرض من أمراض النفس ، وهو مرض
غالب فلا يخلص منه إلا قليل من الناس • ولهذا يقال : (ما خلا
جسد من حسد • لكن اللئيم يديه ، والكريم يخفيه • فمن وجد
في نفسه حسداً لغيره فعليه أن يستعمل معه التقوى والصبر ،
فيكره ذلك من نفسه • وكثير من الناس الذين عندهم دين
لا يعتقدون على المحسود ، ولكنهم أيضاً لا يقومون بما يجب من
حقه ، بل إذا ذمه أحد لم يوافقوه على ذمه ولا يذكرون محامده •
وكذلك لو مدحه أحد لسكتوا ، وهؤلاء مدينون في ترك المأمور
في حقه ، مفرطون في ذلك ، وجزاؤهم أنهم يبخسون حقوقهم فلا
ينصفون أيضاً في مواضع •

ولهذا قيل : أول ذنب عصى الله به ثلاثة : الحرص ، والكبر ،
والحسد • فالحرص من آدم ، والكبر من إبليس ، والحسد من
قاييل حيث قتل هابيل •

وفي السنن عن النبي ﷺ :

« دبَّ إليكم داء الأمم قبلكم : الحسد ، والبغضاء وهي
الحالقة : لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين » •
فسماه داء ، كما سمي البخل داء في قوله :
« واي داء أدوا من البخل ؟! » •

فعلم أن هذا مرض • وقرن في الحديث الأول الحسد بالغضاء ، لأن الحاسد يكره أولاً فضل الله على ذلك الغير ، ثم ينتقل إلى بغضه • والحسد يوجب البغي كما أخبر الله تعالى عن قبلنا : حيث بغى بعضهم على بعض كما يبغى الحاسد على المحسود •

فالبخل والحسد مرض يوجب بغض النفس لما ينفعها ، بل وجبها لما يضرها • والقلب إنما خلق لأجل حب الله تعالى ، وهذه هي الفطرة التي فطر الله عليها عباده • والرسول صلى الله عليهم بعثوا لتقرير الفطرة وتكميلها لا لتغييرها وتحويلها • وإذا كان القلب محباً لله وحده مخلصاً له الدين لم يبتل بالأمراض •

فصحة القلب بالإيمان تحفظ ، من العلم النافع والعمل الصالح • فليحرص المؤمن على كمال الفرائض من الصلوات الخمس باطنة وظاهرة فانها عمود الدين • وليكن هجيره : لاحول ولا قوة إلا بالله فانها بها تحمل الأثقال وتكابد الأهوال وينال رفيع الأحوال •

والحمد لله رب العالمين •• وله الحمد والمنة على الإسلام والسنة •

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأزواجه أمهات المؤمنين ، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليماً كثيراً (١) •

(١) مجموع الفتاوى ٩١/١٠ بتصرف •

اشتهر ابن تيمية بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وانه مباشر ذلك أحياناً بيده . وكان له هيبة عند الحكام والعامّة على السواء . . . وهذه رسالة منه رحمه الله إلى السلطان يطلب منه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . قال رحمه الله :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

من أحمد بن تيمية إلى سلطان المسلمين ، وولي أمر المؤمنين ، نائب رسول الله ﷺ في أمته ، بإقامة فرض الدين وسنته ، أيده الله تأييداً يصلح به له وللمسلمين أمر الدنيا والآخرة ، ويقيم به جميع الأمور الباطنة والظاهرة ، حتى يدخل في قوله تعالى :

« الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور » (١) وفي قوله ﷺ : « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل . . . » وقد استجاب الله الدعاء في السلطان ، فجعل فيه من الخير الذي شهدت به قلوب الأمة ما فضله به على غيره .

والله المسؤول أن يعينه ، فإنه أفقر خلق الله إلى معونة الله وتأيدته . قال تعالى :

« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم » (٢) .

(١) سورة الحج : الآية ٤١ .

(٢) سورة النور : الآية ٥٥ .

وصلاح أمر السلطان بتجريد المتابعة لكتاب الله وسنة رسوله
ونبيه ، وحمل الناس على ذلك ، فإنه سبحانه جعل صلاح أهل
التمكين في أربعة أشياء: إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف،
والنهي عن المنكر . فإذا أقام الصلاة في مواقيتها جماعة — هو
وحاشيته وأهل طاعته — وأمر بذلك جميع الرعية ، وعاقب من
تهاون في ذلك العقوبة التي شرعها الله ، فقد تم هذا الأصل . ثم
إنه مضطراً إلى الله تعالى ، فإذا ناجى ربه في السحر واستغاث به
وقال : (يا حي يا قيوم ، لا إله إلا أنت برحمتك أستغيث) . أعطاه
الله من التمكين ما لا يعلمه إلا الله .

ثم كل نفع وخير يوصله إلى الخلق ، هو من جنس الزكاة ،
فمن أعظم العبادات سد الفاقات ، وقضاء الحاجات ، ونصر المظلوم
وإغاثة الملهوف ، والأمر بالمعروف ، وهو الأمر بما أمر الله به
ورسوله من العدل والإحسان ، وأمر نواب البلاد وولاة الأمور
باتباع حكم الكتاب والسنة ، واجتنابهم حرمان الله ، والنهي عن
المنكر وهو النهي عما نهى الله عنه ورسوله .

وإذا تقدم السلطان أيده الله بذلك في عامة بلاد الاسلام .
كان فيه من صلاح الدنيا والآخرة له وللمسلمين ما لا يعلمه إلا الله .
والله يوفقه لما يحبه ويرضاه .

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته^(١) .

(١) مجموع الفتاوى : ٢٨ / ٢٤١ .

وإذا كان الشيخ ابن تيمية رحمه الله قد قام بما أوجب الله عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بقلبه ولسانه ويده . فما جوابه عن كيفية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأهميته وشروطه . . . ؟ وفيما يلي بعض إشارات من إجاباته القيمة .

يقول رحمه الله تعالى :

الأمر بالمعروف من خصائص هذه الأمة :

(وصف الله سبحانه هذه الأمة بما وصف به نبيها قال :
« كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » (١)) .

ولهذا قال أبو هريرة رضي الله عنه : (كنتم خير الناس للناس تأتون بهم في القيود والسلاسل حتى تدخلوهم الجنة) .

وسائر الأمم لم يأمرُوا كلَّ أحد بكل معروف ، ولا نهوا كلَّ أحد عن كل منكر ، ولا جاهدوا على ذلك ، والذين جاهدوا كبنِي إسرائيل فعامة جهادهم كان لدفع عدوهم عن أرضهم ، لا لدعوة إلى الهدى والخير . ولهذا كان إجماع هذه الأمة حجة ، لأن الله تعالى أخبر أنهم يأمرُون بكل معروف ، وينهون عن كل منكر . . .) .

(١) سورة آل عمران : الآية ١١٠ .

المعروف والمنكر :

(ومن النهي عن المنكر إقامة الحدود ، ويجب على أولي الأمر — وهم علماء كل طائفة وأمرؤها ومشايخها — أن يقوموا على عامتهم ويأمروهم بالمعروف وينهوه عن المنكر ، فيأمرونهم بشرائع الاسلام وهي الصلوات الخمس في مواقيتها والصدقات المشروعة والصوم المشروع ، وحج البيت الحرام • ومثل الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والايمان بالقدر خيره وشره • ومثل اخلاص الدين لله ، والتوكل عليه ، والرجاء لرحمة الله والخشية من عذابه ، والصبر لحكم الله ، والتسليم لأمر الله ، ومثل صدق الحديث والوفاء بالعهود ، وأداء الأمانات إلى أهلها

وأما المنكر الذي نهى الله عنه ورسوله فأعظمه : الشرك بالله ، وهو أن يدعو مع الله إلهاً آخر كالشمس والقمر ، أو ملك من الملائكة أو نبي من الأنبياء أو رجل من الصالحين •

ومن المنكر كل ما حرمه الله كقتل النفس بغير الحق وأكل أموال الناس بالباطل والربا والميسر وقطيعة الرحم وعقوق الوالدين ، والعبادات المبتدعة التي لم يشرعها الله ورسوله)

اهمية الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وشروطه :

(وتحقيق ذلك أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أوجب الأعمال وأفضلها وأحسنها •

وقد قال تعالى : « ليلوكم ايكم احسن عملاً » (١) . وهو كما قال الفضيل بن عياض رحمه الله : « أخلصه وأصوبه » ، فإن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً . والخالص ان يكون لله ، والصواب ان يكون على السنة . ولهذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول في دعائه : « اللهم اجعل عملي كله صالحاً ، واجعله لوجهك خالصاً ، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً » .

وإذا كان هذا حد كل عمل صالح ، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يجب أن يكون هكذا في حق نفسه . ولا يكون عمله صالحاً إن لم يكن بعلم وفقه ، وكما قال عمر بن عبد العزيز : « من عبد الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح » .

وكما في حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه : « العلم إمام العمل والعمل تابعه » .

فلا بد من العلم بالمعروف والمنكر والتمييز بينهما ، ولا بد من العلم بحال الأمور والمنهي .

ولا بد في ذلك من الرفق ، كما قال النبي ﷺ : « ما كان الرفق في شيء إلا زانه ، ولا كان العنف في شيء إلا شانه » (٢) .

(١) سورة الملك : الآية ٢ .

(٢) رواه مسلم .

ولا بد أيضاً أن يكون حليماً صبوراً على الأذى ، فإنه لا بد أن يحصل له أذى ، فإن لم يحلم ويصبر كان ما يفسد أكثر مما يصلح . كما قال لقمان لابنه :

« وأمر بالمعروف واته عن المنكر واصبر على ما اصابك ، إن ذلك من عزم الأمور » (١) .

ولهذا أمر الله الرسل — وهم أئمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر — بالصبر ، كقوله لخاتم الرسل :

« يا أيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر » (٢) .

فافتتح آيات الإرسال إلى الخلق بالإنداز ، وختمها بالأمر بالصبر ، ونفس الإنداز أمر بالمعروف ونهي عن المنكر .

فلا بد من هذه الثلاثة : العلم ، والرفق ، والصبر . العلم قبل الأمر والنهي ، والرفق معه ، والصبر بعده . وهذا كما جاء في الأثر عن بعض السلف :

« لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من كان فقيهاً فيما يأمر به ، فقيهاً فيما ينهى عنه ، رفيقاً فيما يأمر به ، رفيقاً فيما ينهى عنه ، حليماً فيما يأمر به ، حليماً فيما ينهى عنه » .

وليعلم أن الأمر بهذه الخصال في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مما يوجب صعوبة على كثير من النفوس ، فيظن أنه

(١) سورة لقمان : الآية ١٧ .

(٢) سورة المدثر : الآيات ١-٧ .

بدون هذه الخصال أو أقل . فإن ترك الأمر الواجب معصية ،
فالمنتقل من معصية الى معصية أكبر منها كالمستجير من
الرمضاء بالنار .

ومن المعلوم بما ارانا الله من آياته في الآفاق وفي أنفسنا ؛
وبما شهد به في كتابه : أن المعاصي سبب المصائب ، وأن الطاعة
سبب النعمة .

وقد أخبر سبحانه بما عاقب به أهل السيئات من الأمم كقوم
نوح وعاد وثمود ، وقوم لوط ، وأصحاب مدين ، وقوم فرعون
في الدنيا وأخبر بما يعاقبهم به في الآخرة . كما ذكر ذلك في سور :
النازعات والمزمل والحاقة والقمر وغافر .. الخ .

وإذا كان الكفر والفسوق والعصيان سبب الشر والعدوان
فقد يذنب الرجل أو الطائفة ويسكت آخرون عن الأمر والنهي ،
فيكون ذلك من ذنوبهم ، وينكر عليهم آخرون إنكاراً منهياً
عنه فيكون ذلك من ذنوبهم ، فيحصل التفرق والاختلاف
والشر ، وهذا من أعظم الفتن والشرور قديماً وحديثاً . ومن
تدبر الفتن الواقعة رأى سببها ذلك ، ورأى أن ما وقع بين أمراء
الأمة وعلمائها ومن دخل في ذلك من ملوكها ومشايخها ، ومن
تبعهم من العامة من الفتن : هذا أصلها (١) . *

(١) اي إما عدم إنكار أو إنكار فيه اخطاء .

* مجموع الفتاوى ، لابن تيمية ، طبعة الرياض ، جزء ٢٨ ،
ص ١٢١ - ١٧٠ ، بتصرف .

المحتوى

الموضوع :	الصفحة
المقدمة	٣ - ١٦
اولاً : رسائل شيخ الإسلام من سجنه :	١٧ - ٥٢
١ - رسالة اعتذار إلى والدته	١٧ - ١٩
٢ - رسالة إلى إخوانه بدمشق (يدعوهم فيها إلى العفو والتسامح ..)	٢٠ - ٢٧
٢ - « عبد الله » يشرح حال شقيقه	٢٨ - ٣٠
٤ - رسالة من سجنه بالإسكندرية (يدعو فيها أصحابه إلى التبتل والخشوع)	٣١ - ٣٧
٥ - رسالة إلى أهله من القاهرة	٣٨ - ٣٩
٦ - رسالتان من سجن القلعة بدمشق	٤٠ - ٤٣
٧ - رسالة تلتفت ونصح إلى الشيخ « نصر المنبجي »	٤٤ - ٥٢
ثانياً : ٨ - رسالة شيخ الإسلام إلى ملك قبرص	٥٣ - ٧٧
ثالثاً : ٩ - حديثه عن الحسد كمرض نفسي	٧٨ - ٨٨
رابعاً : حول الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :	٨٩ - ٩٥
١٠ - رسالة إلى السلطان ...	٨٩ - ٩٠
١١ - أهمية وشروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	٩١ - ٩٥